رواء

مجلة فكرية دورية

- هل ما قرره فقهاء السياسة الشرعية يناسب عصرنا؟
- استلهام السنن الإلهية في التخطيط الاستراتيجي
- لنكسر سلسلة الخطأ
- أوان ذهاب العِلم

صيحة نذير..
أدركوا المناطق المحررة!

العدد السابع عشر
ربيع الأول ١٤٤٤ هـ
تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٢٢

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

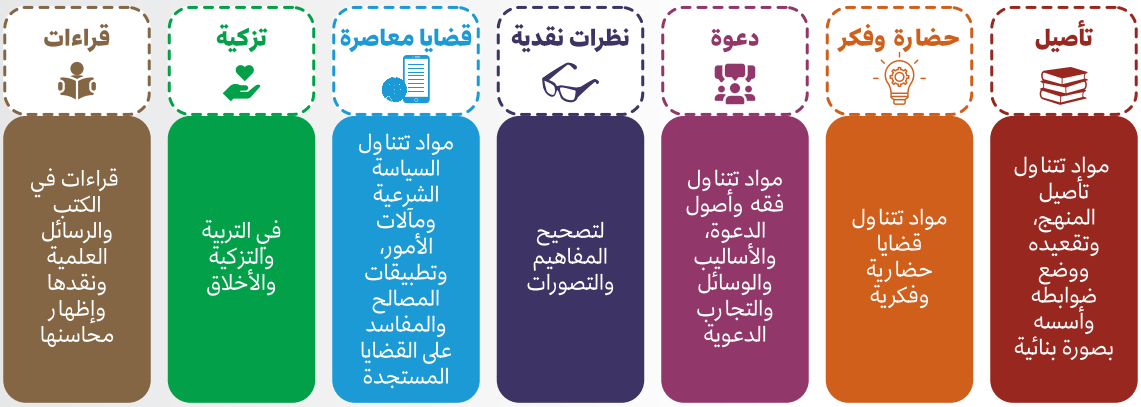

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

أسرة التحرير

د. عماد الدين خيتي
رئيس التحرير

أ. ياسر المقداد
مدير التحرير

أ. محمود درمش
سكرتير التحرير

أ. جهاد خيتي

أ. عبد الملك الصالح

فهرس الموضوعات

صيحة نذير .. أدركوا المناطق المحررة! ٢
الافتتاحية

هل ما قرّره فقهاء السياسة الشرعية يناسب عصرنا؟ ٩
د. عماد الدين خيتي

استلهام السنن الإلهية في التخطيط الاستراتيجي ١٧
أ. طلحة الناصر

لنكسِرْ سلسلة الخطأ ٢٥
أ. محمود درمش

أثر الكلمة الطيبة ٣٢
أ. خالد عبد الحميد أحمد

فقه الواقع وأثره في الفتوى ٣٦
أ. زكرياء غازيوي

ربَّ خشيةٍ أثمرت قائدًا ربانيًا ٤٣
د. عمر النشيواتي

دور التشجير والتخضير في حِفظ مقاصد الشريعة ٤٦
د. عبد الكريم بناني

أوانُ ذهابِ العِلم! ٥٣
أ. محمد أمجد عبد الرزاق بيات

القرآن الكريم.. رسالة الله المتجدِّدة ٥٨
أ. كريمة دوز

قراءة في كتاب:
عبقرية الإمام الشافعي،لمشاري بن سعد الشثري ٦١
أ. مهند تركي الدعفيس

بأقلام القراء ٧٠
مجموعة من القراء

الورقة الأخيرة: جاءَهُ الأعمى ٧٢
د.خير الله طالب

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

كلمة التحرير

صيحة نذير.. أدركوا المناطق المحررة!

نِعَمُ الله تعالى تدومُ بالشُكر وتزول بالكُفر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، والعجب ممَّن يعرف هذا القانون ثم يرتكب ما يوجب زوال النعمة وحلول النقمة، وهذا العجب يزداد مع من ذاق النعمة بعد فقدِها؛ فهذا أجدرُ من غيره بالمحافظة على النعمة والتمسُّك بها، لأنه عَرَف الفقد وعايشه! بخلاف مَن نشأ على النعمة؛ فإنه قد يظنُّها استحقاقًا دائمًا.

ونعمة الأمن من أعظم النعم، وهي الركيزة الأساسية التي تقوم عليها حياة الإنسان، ولا تستقيم من دونها، وبزوالها تستحيل الحياة ضربًا من العذاب ونوعًا من الشقاء؛ فهذه مملكة سبأ التي أنعم الله عليهم بنِعم عظيمة ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أمرهم الله أن يشكروا هذه النِّعم ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾؛ لكنهم قابلوها بالإعراض عن دين الله فأزالها الله عنهم، وبدَّلهم بها ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦]. ومِن النعم التي كانوا يرفلون بها نعمة الأمن: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾؛ لكنَّهم من طغيانهم وسفاهتهم تمنَّوا أن تكون أسفارهم بعيدة، ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، فأزال الله عنهم نعمة الأمن ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩]؛ وصاروا عِبرة للناس إلى يوم القيامة تُتلى فيهم الآيات.

الأمن ضرورة للبشر:

حفلت نصوص الوحيين بالتذكير بهذه النعمة العظيمة في العديد من المواضع وبمختلف الأساليب؛ فقد امتنَّ تبارك وتعالى على قريش بنعمة الأمن بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وجعل شكر هذه النعمة بتوحيده وعبادته، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤]. كما امتنَّ على المسلمين في غزوة أُحُد بنزول الأمن والطمأنينة عليهم فقال: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فجعل النعاس أمانًا لهم بعد الخوف من كثرة عدوِّهم وقلة عَددهم وعُددهم.

وعدَّها النبي ﷺ إحدى أهمّ النعم التي يتقلَّب فيها الإنسان، فقال: (مَنْ أصبَحَ آمِنًا في سِرْبِه، معافًى في جسده، عنده قُوتُ يومه، فكأنما حِيزَتْ له الدنيا)[١]. والدعاء بالأمن من أهم أدعية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فكان من دعاء إبراهيم عليه السلام لأهل مكة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فَبَدَأَ بالأَمْنِ قَبل الرِّزْقِ.

وهو جزاء الله لعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، وفي الآخرة: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

> **نِعَمُ الله تعالى تدومُ بالشُّكر وتزول بالكُفر، والعجب ممَّن يعرف هذا القانون ثم يرتكب ما يوجب زوال النعمة وحلول النقمة، ويزداد العجب مع من ذاق النعمة بعد فقدِها؛ فهذا أجدرُ من غيره بالمحافظة على النعمة والتمسُّك بها، لأنه عَرَف الفقد وعايشه!**

لا حياة دون أمن:

الأمن من ضروريات الحياة؛ فإن لم يكن أمنٌ فلا حياة، قال الماوردي: «اعلم أنَّ ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة ستةُ أشياء، هي قواعدها وإن تفرَّعت، وهي: دِين متَّبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن، وخِصب دائم، وأمل فسيح»[٢]. وقال الجويني: «لا تصفو نعمة عن الأقذاء ما لم يأمن أهل الإقامة والأسفار من الأخطار والأغرار...؛ فالأمن والعافية قاعدتا النِّعم كلها، ولا يُهنأ بشيء من دونها»[٣].

بل إن حفظ الأمن وسيلة للحفاظ على الدين والدنيا؛ قال الغزالي: «إنَّ نظام الدِّين لا يحصل إلا بنظام الدنيا.. فنظام الدِّين بالمعرفة والعبادة لا يُتوصل إليهما إلا بصحّة البدن، وبقاء الحياة، وسلامة قدر الحاجات من الكسوة، والمسكن، والأقوات، والأَمْن»، إلى أن قال: «فلا ينتظم الدِّين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمّات الضروريات»[٤].

وقد جعل تعالى ذهابَ الأمن قرينَ القتل وإزهاق الأنفس، كما في قوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، والمراد بالآية: «إن فتنتهم إيّاكم في الحرم عن دينكم بالإيذاء والتعذيب، والإخراج من الوطن، والمصادرة في المال، أشدّ قبحًا من القتل؛ إذ لا بلاء على الإنسان أشدّ من إيذائه واضطهاده، وتعذيبه على اعتقاده الذي تمكّن من عقله ونفسه، ورآه سعادة له في عاقبة أمره»[٥].

الأمن مسؤولية مَن؟

أمنُ الناس على أمور دينهم ودنياهم مسؤولية جماعية تشترك فيها الأطراف كافّة:

١- مسؤولية الحاكم:

الأمن أحد أهم مسؤوليات القائم على شؤون الناس في الإسلام، فالخلافة -كما كان منصب الحاكم القائم بشؤون الحكم- هي: «رئاسة عامة في أمر الدين والدنيا، خلافة عن النبي ﷺ»[٦]، ومن مهام الخليفة: «حمل الكافّة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها»[٧].

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١).
(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي، ص (١٣٣).
(٣) غياث الأمم في التياث الظلم، للجويني، ص (٢١٢).
(٤) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، ص (١٢٨-١٢٩).
(٥) تفسير المنار (١٦٩/٢).
(٦) الخلافة، لرشيد رضا، ص (١٧).
(٧) تاريخ ابن خلدون (٢٣٩/١).

أهم الواجبات في المناطق المحررة

أهل السياسة:
تحمل المسؤولية في تحقيق مصالح الثورة وعدم الافتئات عليها والتشاور مع أهل الرأي فيها

القضاة:
تحقيق العدالة، والاستقلال عن مختلف المسميات، وإنزال العقوبات الصارمة بالمفسدين دون محاباة

الإدارات المدنية:
خدمة الناس وتيسير معاملاتهم، وحل مشاكلهم، وتوحيد المرجعية والإجراءات والأنظمة القانونية

الفصائل العسكرية:
حفظ الأمن، وتحصين الثغور وحراستها، وتنقية الصفوف من الخونة، والسعي الجاد لتوحيد الصف

العلماء والدعاة:
نشر العلم والإجابة عن الشبهات، وتثبيت الناس، والتصدي للأفكار التخريبية، والاحتساب على الجهات المقصرة، والوقوف بوجه الظلمة

عموم المجتمع:
صدق التوجه إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحافظة على البنية المجتمعية، والتربية على التمسك بالدين والعزة والكرامة والتضحية والبذل

وقد أجمَل الماورديُّ مسؤوليات الحاكم بكلام طويل خلاصته: حِفظُ الدين، وتنفيذُ الأحكامِ بَيْنَ الْمُتَشاجِرِينَ، وقَطعُ الخِصامِ بَيْنَ الْمُتَنازِعِينَ، وحِمايةُ البَيْضَةِ ليأمن الناس من تَغرير بنَفس أو مال، وإقامةُ الحُدُودِ لِتُصانَ مَحارِمُ الله تَعالى وَتُحْفَظَ حُقُوقُ العباد، وتَحصِينُ الثُّغُورِ، والجهادُ، وجِبايَةُ الفَيْءِ والصَّدَقاتِ، وتقديرُ العَطايَا، وتوليةُ الوُلاة والمسؤولين الأمناء النصحاء. وأنْ يتولى الأمر بنفسه ولا يعوّل على التفويض تشاغلًا بلذّة أو عبادة وفي القرآن والسنة إشارة إلى ذلك، قال اللهُ تَعَالَى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال النبيُّ ﷺ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)[1].

وهذه المسؤولية تعمُّ جميع مَن ولّاه الله شيئًا من أمر المسلمين، من مسؤولين سياسيين، ومدنيين، وأمنيّين، وعسكريين وغيرهم؛ فكلٌّ منهم مسؤولٌ في نطاق مسؤوليته، وهو محاسبٌ عليها يوم القيامة.

قد تكون كلمة الحق باهظة الثَّمن؛ فقد تُفقد العالم أو الداعية -الذي لا يخشى إلا الله ولا يخاف فيه لومة لائم- ماله وحريته، وقد تنفيه وقد تُقيِّده، وقد تؤدِّي لقتله، لكنها صمام أمان للمجتمع تقيه من ظلم الظالمين، وتقي الظالمين من شرِّ أنفسهم

٢- مسؤولية أهل العلم:

فالعلماء هم ورثة الأنبياء، وهم مصابيح الهداية التي ترشد الناس في المُلمّات، ولهم دور عظيم في حفظ الأمن والاستقرار في المجتمع، تتمثل بثلاثة أمور:

- بيان الحق للناس؛ ولا سيما في الأمور المشتبهة التي تخفى على الناس، والأخذ بأيديهم إلى صراط الله المستقيم، ومنعهم من الانزلاق في مهاوي الفتن والفوضى، وقيادتهم في الأزمات الخطيرة.
- والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقيادة عملية الإصلاح المجتمعي بهدف

(١) الأحكام السلطانية، ص (٤٠-٤١).

القضاء على كلِّ ما من شأنه زعزعة الأمن وإشاعة الفوضى.

* والصدع بكلمة الحق دون خوف، ونصح المسؤولين على اختلاف مستوياتهم واختصاصاتهم، وتخويفهم بالله عند تقصيرهم في حفظ الأمن والوقوع في مخالفته؛ احتسابًا وأداءً لجهاد البيان وأمانة الكلمة، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقد قال رسول الله ﷺ: (أفضلُ الجهادِ كلمةُ عدلٍ عند سُلطانٍ جائرٍ)[١].

وقد تكون كلمة الحق باهظة الثَّمن؛ فقد تُفقد العالم أو الداعية ماله وحريته، وقد تنفيه وقد تُقيِّده، وقد تؤدِّي لقتله، (سيد الشهداء حمزة...) لكنها صمام أمانٍ للمجتمع تقيه من ظلم الظالمين، وتقي الظالمين من شرِّ أنفسهم؛ إذا قيلت من عالمٍ لا يخشى إلا الله ولا يخاف فيه لومة لائم، ويزرع الله مهابته في قلوبهم، فيرتدعون وينزجرون ويتوقّفون عن الظلم والبغي.

المجتمع هو السياج الحامي للدين والأخلاق، وقد أناط به الشارع واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي يتأكد عند تفريط الجهات والمؤسسات الرسمية في واجبها، أو انحرافها عن الواجب بتسلّط بعض المنتفعين والفاسدين عليها، فإن خشي الجميع من قول كلمة الحق فإن هذا نذيرٌ بفساد الأحوال وذهاب الأمن

٣- مسؤولية المجتمع:

للمجتمع في الإسلام مكانة كبيرة فهو أساس قيام الدولة، وهو السياج الحامي للدين والأخلاق، وأصل الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس.

ومما هو منوط بالمجتمع: واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويتأكَّد هذا الواجب المجتمعي عند ضعف الجهات والمؤسسات الرسمية عن القيام بواجبها، أو انحرافها عن الواجب بتسلُّط بعض المنتفعين والفاسدين عليها، وقد توعَّد الله المجتمعات التي تتوانى عن هذا الواجب بأشدِّ العقاب.

قال رسول الله ﷺ: (مَن رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[٢]. وقال ﷺ: (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)[٣].

ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ قوله ﷺ: (إنَّ أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتَّقِ الله ودعْ ما تصنع، فإنَّه لا يحلُّ لك. ثم يلقاهُ مَن الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيلَه وشَريبَه وقعيده، فلمَّا فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض)، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۝٨٠ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨١]، ثم قال: (كلّا والله لَتأمُرُنَّ بالمعروف ولَتنهَوُنَّ عن المنكر، ولَتأخُذُنَّ على يد الظالم، ولَتأطُرُنَّه على الحق أطرًا - أو تقصرُنَّه على الحقِّ قصرًا)[٤].

وهذه المسؤولية عامة لا يُستثنى منها أحد؛ فإنه لما فهم بعض الناس قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] أنها تَركُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خطب أبو بكر الصديق ﷺ قائلاً: «أيّها الناس إنّكم تقرؤون هذه، وإنّكم تضعونها على

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٤٤) والترمذي (٢١٧٤).
(٢) أخرجه مسلم (٤٩).
(٣) أخرجه الترمذي (٢١٦٩).
(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (١٤٥/٣).

غير موضعها، وإنّي سمعتُ النبي ﷺ يقول: (إنّ النّاس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابٍ منه)[١].

أما إذا خشي الجميع من قول كلمة الحق فإن هذا نذيرٌ بفساد الأحوال وذهاب الأمن، قال رسول الله ﷺ: (إذا رأيت أمتي تهاب فلا تقول للظالم يا ظالم فقد تُوُدِّع منهم)[٢]، أي: أنَّ الأمّة إذا أصبحت في حالٍ تخشى فيه من الإنكار على الظلَمَة ومَنْعهم من الظّلم فقد تُوُدِّع منهم؛ أي: تودَّعهم الله وتركهم لاستواء وجودهم وعدمهم. واستنبطَ منه أنَّ ترك إنكار المنكر من أسباب خذلان الله للأمة[٣].

أنجزت الثورة الكثير في التصدي لمشروع الغلاة التخريبي وما يمثله من اختراق، لكن خطرهم ما زال ماثلاً للعيان، سواء بفكرهم المنحرف الذي يحاولون بثه بين الناس بشتى الوسائل، أو تآمرهم واعتداءاتهم المتكررة على المحرر، وأثرهم في إضعاف الثورة وإشغالها عن التصدي لمشروع استكمال التحرُّر والبناء

واقع الشمال السوري المحرر:

مرَّت الثورة السورية بالكثير من الامتحانات والمصاعب التي عصفت بها حتى كادت تقضي عليها، وتركَّز وجودها في شمال البلاد، وكان المنتظر والمتوقع بعد التغلُّب على هذه المصاعب، وبعد التخلُّص من عهد الخوف والقمع في ظل حكم آل الأسد واجتماع كوادر الثورة فيها أن يستتبَّ الأمن، وأن ينعم الناس به على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم، وأن تبدأ المشروعات النهضوية بالظهور والنضج؛ لكن الواقع كان على خلاف ذلك!

لا ينكر أحد أنَّ التدخلات والضغوط الخارجية لم تتوقَّف بجميع أشكالها وصورها؛ بدءًا من الإملاءات السياسية، مرورًا بالتحكم بالفصائل والإدارات المحلية والكيانات المجتمعية، وانتهاءً بالمساومة بورقة المساعدات الإنسانية. لكنّ ذلك لا يعني إعفاء المسؤولين مما وصلت إليه الأوضاع.

فغياب السلطة المرجعية لهذه المناطق هو السائد حتى في أصغر الأمور، إضافة إلى تعدُّد مراكز المسؤولية وتنازعها للسلطة والقرار، وتعطيل بعضها لبعض، وتنصُّلها من المسؤوليات؛ مما يولِّد اختلافًا في المسائل الإدارية، وصعوباتٍ لعموم الناس، واضطرابًا في معاملاتهم؛ وهذا يُفقدهم الأمن الإداري، وضياع حقوقهم بين هؤلاء وأولئك.

مع ضعف مؤسسات العمل السياسي وتفرُّقها وتنازعها، وتسلل بعض من لا يؤتمن على مستقبل البلاد والعباد إليها، وانخراطها في مشاريع ومساومات مرفوضة من عامة الناس، ولا تخدم مصالحهم.

ويعاني الاقتصاد من عدم ضبط الأسعار، وتهريب البضائع من مناطق الثورة وإليها، مما يؤدِّي إلى إدخال بضائع غير موثوقة، بالإضافة إلى الاحتكار ورفع الأسعار، فضلاً عن الصعوبة الشديدة في تصدير منتجات هذه المناطق إلى خارجها، مما يزيد من صعوبات التكسُّب والاتِّجار والإنتاج؛ وهذا يُفقد الناس الأمن الاقتصادي.

ولعل قطاع التعليم من أكثر القطاعات المتضرِّرة بغياب التنسيق بين الإدارات المسؤولة عن سير العملية التعليمية وما يتعلق بها من مناهج وشهادات ونحوها، مع تسرّب التلاميذ من التعليم، والصعوبات التي يواجهها الكادر التعليمي، وجميع هذا مما يضعف الأمن الفكري والعلمي للمجتمع.

أما المخاطر الفكرية فلها مظاهر عديدة من تسلُّل المنظمات والشخصيات ذات الاتجاه المنحرف أو المشبوه، عن طريق المساعدات والدورات التدريبية وغيرها؛ لتبثّ سمومها في عقول الشباب والفتيات، بما تحمله من أفكار منفلتة، ومشاريع مشبوهة.

ومما يفاقم الأزمة: فوضى السلاح بيد الفصائل والتشكيلات العسكرية، مع شيوع الفصائلية والتحزب لها، وعدم وجود قيادة أو مرجعية واحدة تنظم هذه الفصائل، وتضبطها، وتحاسبها في حال تجاوزت حدودها.

وأخطر ما هنالك وجود التشكيلات المسلَّحة الفاسدة التي تتسلَّط على الناس؛ فتمارس جرائم

(١) أخرجه أحمد (١).
(٢) أخرجه أحمد (٦٧٨٤) والحاكم (٧٠٣٦).
(٣) فتاوى الشبكة الإسلامية رقم (٥٦١٢٢).

العصابات بشتى أنواعها من القتل والاعتداء على أعراض الناس وأموالهم، والتجارة بالمخدرات، وترفع اسم الثورة ومعارضة النظام تمويهًا وتضليلاً.

كما أن غياب السلطة القضائية الرادعة، وتعطيل تطبيق العقوبات الزاجرة؛ زاد من انتشار الجرائم والجرأة عليها.

ومع ما أنجزته الثورة من التصدي لمشروع الغلاة التخريبي وما يمثله من اختراق، إلا أنَّ خطرهم ما زال ماثلاً للعيان، سواء بفكرهم المنحرف الذي يحاولون بثه بين الناس بشتى الوسائل، أو اعتداءاتهم المتكررة على المحرر، وتآمرهم عليه وتحالفهم مع الفاسدين والمنحرفين، وأثرهم في إضعاف الثورة وإشغالها عن التصدي لمشروع استكمال التحرر والبناء.

كلُّ هذه الإشكالات أدَّت لظهور عددٍ من المشاكل الأخرى كالفقر والجهل والانحرافات الفكرية والسلوكية؛ مما جعل من الشمال السوري المحرر منطقةً تعاني من الاضطراب، يتطلع الناس فيها للحياة المستقرة الآمنة لإكمال مسيرة الثورة.

لا شك أن إنجازات الثورة كبيرة وكثيرة يضيق المقام بذكرها، ولعل من أهمها تحرير الناس من سلطة النظام المجرم الأمنية والفكرية، ولا شكّ أن للثورات ضرائبها ومشاكلها، لكن من غير المقبول شرعًا ولا واقعًا استمرار الأوضاع على ما هي عليه، والاستسلام لهذه المشكلات وتركها دون حل ناجع.

الحرية التي ذاقها الناس وبذلوا في سبيل الحصول عليها الغالي والنفيس علّمتهم أمورًا كثيرة لا يمكنهم التنازل عنها بحال، ليس أولها شجاعتهم في الصدع بالحق، وليس آخرها حبّهم لدينهم وبذلهم في سبيله، وتمسُّكهم به وتجربتهم للعيش في ظلاله بعيدًا عن المنع والقمع والتضييق

بارقة أمل:

على الرغم من وجود هذه المنغِّصات لا يزال في الأمل فسحة، والجزء القاتم من المشهد ليس كامل الصورة، لكنه جزءٌ قابل للتمدُّد والتوسُّع، وفي مقابله مساحاتٌ من الأمل والتفاؤل والعزيمة الصادقة على الإصلاح والنهوض؛ فالحرية التي ذاقها الناس وبذلوا في سبيل الحصول عليها الغالي والنفيس علّمتهم أمورًا كثيرة لا يمكنهم التنازل عنها بحال، ليس أولها شجاعتهم في الصدع بالحق، وليس آخرها حبّهم لدينهم وبذلهم في سبيله، وتمسُّكهم به وتجربتهم للعيش في ظلاله بعيدًا عن المنع والقمع والتضييق.

والجهود التي قامت على أيدي عموم الناس -وبالأخص الشباب- الذين لم تتلوث أيديهم بالدماء الزكية، ولم تمتلئ جيوبهم بالمال الحرام، ولم ينضموا لكيانات مشبوهة، بل كان كلُّ همهم بناء مستقبل مشرق للبلاد في شتى مجالات الحياة التعليمية، والعلمية، والعسكرية، والمدنية، والخدمية؛ تؤكِّد حياة المجتمع ونبضه وجريان الروح فيه.

ثمة واجبات مناطة بجميع شرائح المجتمع للنهوض بواقع المحرر وإصلاح وضعه: سياسيين، وقضاة، وعسكريين، وقائمين على الإدارات المدنية والخدمية، وعلماء ودعاة، وعامة المجتمع، كلٌّ بحسب مجاله وميدانه، والتفريط في هذه الواجبات خيانة للأمانة وتفريط في المسؤولية

ما الدور المنتظر؟

هذه المناطق هي البيئة الحرّة التي يُنتظر منها قيادة التغيير في المستقبل القريب، لا سيَّما وأنّ التضحيات التي بُذلت في سبيل تحريرها كبيرة لا يُستهان بها، وهذا يفرض على جميع شرائح المجتمع الكثير من الواجبات؛ لعل من أهمها:

- ما يجب على السياسيين:

قيامهم بمسؤولياتهم وواجباتهم في تمثيل الثورة والدفاع عنها وتحقيق مصالحها، وعدم الافتئات عليها، واستشارة أهل الرأي من بقية الدوائر الثورية في الموقف من المؤتمرات والمشروعات والقضايا الدولية، أو الاعتزال في حال عدم القدرة على تحمل مسؤولياتها، وإفساح المجال لمن يتولى المسؤولية بحقها، فهذه المناصب ليست مكسبًا ولا استثمارًا ولا استحقاقًا، بل هي واجبٌ وأمانةٌ (وإنها يومَ القيامةِ خزيٌ وندامةٌ إلا من أخذها بحقِّها وأدَّى الذي عليه فيها)[1].

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٥).

وليعلموا أنَّ الأصل في هذه المناصب أن تكون باختيار الناس ورضاهُم، وأنّهم شركاء معهم في صياغة مستقبل البلاد وما يتعلّق بشؤون الحكم، وأنهم محاسَبون أمامهم على تقصيرهم أو عدم أداء الأمانة على الشكل الصحيح.

- ما يجب على القضاة:

الاستقلال التام عن الكيانات والمسميات الفصائلية والحزبية، وتقوى الله في الأمانة التي يتحملونها، واعتماد الأنظمة والمدونات القانونية التي تحقق إقامة العدل؛ مما لا يترتَّب عليه ضرر ولو في المستقبل، مع إنزال العقوبات الصارمة والرادعة لكل مُفسِد ومجرم دون تأخير أو تساهل أو محاباة، والحذر من التفريق بين الأقوياء والضعفاء أو الأغنياء والفقراء.

- ما يجب على القائمين على الإدارات المدنية بمختلف أنواعها التعليمية والصحية والخدمية:

العمل على خدمة الناس وتيسير معاملاتهم، وحل مشاكلهم، وتوحيد المرجعية والإجراءات والأنظمة القانونية، وتطلبات الوثائق والشهادات، وليعلموا أنهم مؤتمنون على هذه الأعمال، وأنهم ما تسلموها إلا للقيام بخدمة الناس ورعايتها، وهي أمانة كما تقدم.

- ما يجب على الفصائل العسكرية:

استشعار حساسية الدور الذي يقومون به، والتفاني في حفظ الأمن، وتحصين الثغور وحراستها، وتركيز العمل على تنقية الصفوف من الخونة والانتهازيين والنفعيين، والسعي الجاد لجمع الكلمة وتوحيد الصفوف، وعدم استغلال المناصب العسكرية وقوة السلاح في تحقيق المنافع الشخصية الضيقة.

- ما يجب على العلماء والدعاة:

التكاتف فيما بينهم، وتنحية الخلافات عن المنابر ومجالس الناس، وحصرها في غرف العلم والدرس، والتعاون في نشر العلم والإجابة عن الشبهات، وتثبيت الناس، والتصدي للمشاريع والأفكار التخريبية مهما كان مصدرها، والاحتساب على المؤسسات والجهات التي لديها تقصير أو أخطاء، والوقوف بوجه الظلمة وأَطرُهم على الحق، والحذر من إعطاء الشرعية لفاسد أو ظالم تحت أي ذريعة كانت.

> **المناطق المحررة هي البيئة الحرّة التي يُنتظر منها قيادة التغيير في المستقبل القريب، لا سيَّما وأنّ التضحيات التي بُذلت في سبيل تحريرها كبيرة لا يُستهان بها، وهذا يفرض على جميع شرائح المجتمع الكثير من الواجبات والتضحيات**

- ما يجب على عموم المجتمع:

١. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (للمسؤولين والعامّة)؛ للحفاظ على مركب المجتمع من الفساد والغرق.

٢. الفرار إلى الله والالتجاء إليه والتقرب إليه بالاجتهاد في العبادة (العِبادَةُ في الهَرْجِ كهِجْرَةٍ إلَيَّ)[١].

٣. المحافظة على البنية المجتمعية وتقوية الروابط الأسرية والاجتماعية، وتربية الأولاد والأسر على التمسك بالدين والعزة والكرامة والتضحية والبذل.

٤. توعية الأجيال بالرواية الصحيحة لما جرى من أحداث منذ اللحظة الأولى لشرارة الثورة حتى الوقت الحالي، لئلا يختلط الحابل بالنابل وتُشوَّه الأحداث ويُساوى المصلحون بالمفسدين.

٥. عقد العزم على الانحياز للمظلوم حيثما كان، ونبذ الظلم والبغي كيفما كان.

٦. المرابطة على الثغور الدعوية والتربوية، وعدم تركها إلا لأسباب قاهرة.

٧. بالشكر تدوم النعم، وعلى رأسها المحافظة على (الشمال المحرر)؛ شكرًا لله تعالى على نعمة تحرُّره من بغي النظام المجرم، وتقويته ليكون شعلة الثورة التي تضيء منها جميع مناطق سوريا الحبيبة.

نسأل الله تعالى أن يحفظ البلاد والعباد، وأن يمكّن لدينه في الأرض؛ إنه سميع مجيب.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٨). الهَرْج هو وقت الفتن واختلاط الأمور وتخبّط الناس. وقد حثّ النبي صلى الله عليه وسلم على العبادة في هذا الوقت وعظّم أجرها؛ لأنّ فيها صدقَ اللجوء إلى الله والإقبال عليه وترك الأهواء، وفي ذلك تحصين من الفتن، وحفظ من الفساد.

تأصيل

هل ما قرّره فقهاء السياسة الشرعية يناسب عصرنا؟

د. عماد الدين خيتي (*)

الإسلام ناسخ لجميع الشرائع السابقة، والنبي محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء، وبقاء هذا الدين إلى يوم القيامة معلومٌ بالضرورة، ومن الدلالات الحتمية لهذا الأمر: صلاحية هذه الشريعة لكل زمان ومكان. وبالرغم من وضوح هذا الأمر شرعيًا وتاريخيًا، فإننا نجد بين المسلمين من يُردِّد ما يدَّعيه أعداء الإسلام من عدم صلاحية الشريعة وأدواتها في السياسة والتشريع لعصرنا الحديث!!

مدخل:

عند الحديث عن تطبيق النظام السياسي الإسلامي وإقامة أحكام الشريعة يَعترض بعضُهم بقولهم: «إنَّ الشريعة نزلت في إطارٍ زمني قابل لتطبيق أحكامها في حدوده، ومُتعلِّقة بمعطيات تاريخية لم تعد متحققة في عصرنا، فهناك متغيرات ومستجدات تختلف عما كان عليه الحال في القديم، وبالتالي فإن تطبيقها في الوقت الحالي لم يعد ممكنًا.

كما أنَّ نظام الدولة الحديث ومكوِّناتها وعلاقاتها الداخلية والخارجية كلها تغيرت عما كانت عليه في السابق، فكيف لشريعة نزلت لعصر سالف وغطت حاجاتِ أزمنة سابقة أن تلبِّي حاجاتنا المعاصرة؟ وكيف لشريعة ثابتة أن تلبي حاجات متغيرة؟»

والمقالة التي بين أيدينا لمناقشة هذه الدعوى من خلال المسائل التالية:

المسألة الأولى: الدعوة إلى النظام السياسي الإسلامي ليست استنساخًا للتاريخ:

الدعوة إلى النظام السياسي الإسلامي ليست رجعية -كما يعبِّر البعض- من خلال العودة إلى حقبةٍ تاريخيةٍ معينة، أو استنساخ مظاهرَ وأشكالٍ ومسمَّياتٍ قديمة، أو العمل على مطابقة الحاضرِ للماضي بكلِّ ما فيه، فمثل هذه الأفكار لا تثمر إلا دعواتٍ عاطفية، وتصوُّراتٍ بدائية، وتخيُّلاتٍ ساذجة لا تمتُّ للواقع بِصِلة، ولا يمكن أن يقوم عليها مشروع، ولا يقول بها أحدٌ من الداعين إلى تطبيق الشريعة أو المناداة بالنظام السياسي الإسلامي خلا بعض النماذج المشوَّهة للغُلاة ونحوهم، ممن لا اعتبار لهم.

(*) باحث ومتخصص في الدراسات الإسلامية، نائب رئيس مجلس الإفتاء في المجلس الإسلامي السوري

إنَّ التصوُّر الذي يقوم على أنَّ إقامة الشريعة وتحكيمَها لا يكون إلا باستدعاء هيكلٍ معيَّن، أو أسلوب حكم مخصَّص، أو وجود مسمَّياتٍ معيَّنة، كالخليفة، والأمير، والوالي، أو أنه لا يكون ذلك إلا على جميع الأراضي التي امتد إليها حكم المسلمين تاريخيًا، ونحو ذلك، هو تصوُّرٌ خاطئ، فنظام الحكم الإسلامي ليس محصورًا في صورٍ ومسمَّياتٍ رهينة زمنٍ محدَّدٍ أو ظروفٍ معيَّنة، لكنه حقائق يمكن تنزيلها لتجيب عن كل ما تحتاجه الدولة ونظام الحكم فيها ويحقق مصالح الناس في أيِّ عصر من العصور.

بل إنَّ المستقرئ لتاريخ الدولة الإسلامية في كلِّ العُصور يجدُ أنها كانت سابقةً لعصرها متقدِّمةً عليه، ومن الأدلَّة على ذلك أنَّ الدولة الإسلامية لما نشأت في المدينة على عهد الرسول ﷺ كانت نابعةً من المجتمع الذي نشأت فيه، فظهرت فيها التنظيمات الإدارية والوظائف القيادية المعروفة.

وبعد وفاة الرسول ﷺ ظهر نظامُ الخلافة في عهد أبي بكر ﷺ، وهو نظام لا يعني قيادة الناس فحسب، ولا يشبه الأنظمة المعروفة للملك أو الإمارة أو رئاسة القبيلة، بل هو نظامٌ فريدٌ يجمع بين المنصب الشرعي والدنيوي، كما تأسَّس العملُ بمبدأ الشورى في اختيار الخليفة واتخاذ القرارات.

ولما توسَّعت الدولة في عهد عمر بن الخطاب ﷺ وازداد عدد رعاياها ومسؤولياتها، وتنوَّعت أقاليمها، واحتاج الخليفة لضبط شؤون الدولة، اتَّخذ الدواوين، كديوان الجند، والخراج، وانتقلت مؤسسة الشورى لمرتبةٍ أكثر تنظيمًا.

وفي عهد الدولة الأموية اتَّخذ الخُلفاء مساعدين للقيام ببعض الأمور كالوزراء والكتَّاب، وتوسَّعت مؤسسة الدواوين وأصبحت أكثر تنظيمًا وشمولًا، وتعدَّدت التقسيمات والمناصب الإدارية واستقرَّت.

ثم ظهرت أنواع الوزارة من تفويض وتنفيذ في العهد العباسي، وانتقلت وظيفة الكتَّاب والحجَّاب إلى مؤسسة لها شروط لتوليها، وتنظيماتها المختلفة.

ويمكن تتبُّع نشوء وتطور مؤسسات القضاء، والحسبة، وديوان المظالم، والبريد، والأنظمة المالية، والإدارية، والعسكرية وغيرها، والتي كانت الدولة الإسلامية سابقةً لزمانها في كل عصر في تبنيها والأخذ بها وتطويرها[1].

> **نظام الحكم الإسلامي ليس محصورًا في صورٍ ومسمَّياتٍ رهينة زمنٍ محدَّدٍ أو ظروفٍ معيَّنة، لكنه حقائق يمكن تنزيلها لتجيب عن كل ما تحتاجه الدولة ونظام الحكم فيها، ويحقق مصالح الناس في أيِّ عصر من العصور**

المسألة الثانية: الشريعة فيها الثابت والمتغير:

في الحديث عن عدم صلاحية الشريعة لزماننا بسبب ثباتها وتغير الزمن وظروفه خلطٌ بين أمرين:

- نظام الحكم في الإسلام والذي يعني المرتكزات العامة، والتشريعات والقوانين الأساسية التي تسير عليها الدولة في مختلف مفاصلها، كالتشريعات الاقتصادية والقضائية والجنائية ونحوها، وهي تشريعاتٌ ثابتةٌ صالحةٌ لكل زمان ومكان.
- مؤسسات الدولة وهياكلها، وقوانينها التنفيذية الإجرائية، والتي تختلف باختلاف الزمان والمكان، وقد وضعت الشريعة أطرها العامة وتركت تفاصيلها للناس وما يستجدُّ لهم.

فالخلط بين الأُسس والمرتكزات للنظام السياسي في الإسلام، وبين المؤسسات والقوانين الإجرائية التفصيلية، وبين الثابت والمتغيِّر فيها: جهلٌ بطبيعة الشريعة ونظام الحكم فيها، يؤدِّي إلى الوقوع في خطأ استدعاء التاريخ أو استنساخه من كلا الفريقين؛ الذين يُريدون أن يرسموا نظام الدولة الحديثة بمعزلٍ عن التشريعات الإسلامية ويتنكَّرون للثابت منها، والذين يريدون أن يستنسخوا حقبةً تاريخية سابقة بحذافيرها ولم يفقهوا المتغيِّر منها.

وقد جرى توضيح هذا الأمر في مقال سابق[2].

وعليه: فعبارة (الشريعة ثابتة والحياة متغيِّرة) غيرُ صحيحةٍ بهذا الإطلاق؛ فلا الشريعةُ ثابتة في كل أحكامها، ولا الحياة متغيِّرة في كل شؤونها:

(١) للتوسع ينظر على سبيل المثال كتاب: النظم الإسلامية، للدكتور حسين الحاج حسن.
(٢) ينظر مقال: هل يوجد في الإسلام نظام حكم؟ للكاتب، مجلة رواء، العدد الثالث عشر.

فالشريعة فيها الثابت المحكم الذي لا يتغيَّر بتغيُّر الزمان ولا المكان، ومنها ما هو متغيِّر نِسْبِيٌّ وهو من موارد الاجتهاد؛ بل إن منها منطقة العفو التي أحالت فيها إلى التجربة والمصلحة، في إطار من قواعد الشرع الكلية ومقاصده العامة[1].

والحياة كذلك من شؤونها ما هو ثابت، ومنها ما هو متغيِّر متجدِّدٌ؛ فالغرائز الفطرية والحاجات الأساسية للإنسان ثابتة، وسيَظَلُّ الإنسان -ما بَقِيَ الليلُ والنهار، ومهما تغيَّر الزمان والمكان- في حاجةٍ إلى عقيدة يعرف بها سِرَّ وجودِه واتصاله بخالقه، وإلى عبادات تُزَكِّي رُوحَه وتُطَهِّرُ قلبه، وإلى أخلاق تُقَوِّم سُلوكه وتُهَذِّبُ نفسَه، وإلى شرائعَ تُقِيمُ مَوَازِينَ القِسط بينه وبين غيره؛ والذي يتغيَّر من الحياة: الأعراف والتقاليد وظروف الزمان والمكان، وقد تعاملتْ نصوص الشريعة مع الإنسان على هذا الأساس؛ ففَصَّلَتْ له القول في الثابت الذي لا يتغير من حياته، كإقامة العدل وإزالة الجهل وبذل الحقوق وحفظ الأمن والعمل بالشورى، وسكتتْ أو أجملتْ فيما من شأنه التغيُّر والتجدُّد كالتنظيمات الإدارية، والوسائل العصرية، وأساليب التواصل، والتشاور، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2].

> **الشريعة فيها الثابت المحكم الذي لا يتغيَّر بتغيُّر الزمان ولا المكان، ومنها ما هو متغيِّر نِسْبِيٌّ وهو من موارد الاجتهاد؛ بل إنَّ منها منطقة العفو التي أحالت فيها إلى التجربة والمصلحة، في إطارٍ من قواعد الشرع الكلية ومقاصده العامة**

المسألة الثالثة: تحكيم الشريعة لا يتنافى مع الحضارة والمعاصَرَة:

مقولة «الشريعة نزلت في إطار زمنيٍّ قابلٍ لتطبيق أحكامها في حُدوده، ومتعلِّقةٍ بمعطياتٍ تاريخيةٍ لم تعُد متحقِّقةً في عصرنا» تنطوي على دعوى: أن نظام الحكم الإسلامي وتطبيق الشريعة يتعارض مع الحياة المعاصرة ولا يصلح لها.

وهذا كلامٌ باطل من وجهين:

١- الوجه الأول: ادِّعاء التعارض بين الشريعة الإسلامية وبين الحضارة والمعاصَرَة غير صحيح:

فنظام الحكم في الإسلام جزءٌ من الشريعة الإسلامية، والشريعة صالحةٌ لكلِّ زمان ومكان؛ فهي الدين الذي أكمله الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وارتضاه لنا دينًا ومنهاجًا.

وهو الدين الذي أُمرنا بالتحاكم إليه والعمل بما فيه إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال ﷺ: (إنِّي تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلُّوا بعدي أبدًا؛ كتاب الله وسُنَّة نبيه)[3].

وصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان من مسائل الدين المعلومة بالضرورة، التي أجمع عليها المسلمون بلا خلاف، وهي مرتبطةٌ بالتصوُّر الصحيح عن الكون والحياة وعمارة الأرض، كما أنَّها جزء من مشروع التمكين والدعوة الذي كُلف به المسلم.

قال ابن تيمية: «فإنه قد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام: أنَّ رسالة محمد بن عبد الله ﷺ لجميع الناس: عربهم وعجمهم، وملوكهم وزهادهم وعلمائهم وعامتهم وأنها باقية دائمة إلى يوم القيامة، بل عامة للثقلين الجن والإنس، وأنه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته وطاعته وملازمة ما يشرعه لأمته من الدين. وما سنَّه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله أحياء لوجب عليهم متابعته ومطاوعته»[4].

وقال ابن القيم في بيان كمال الشريعة: «وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها، وهو مبنيٌّ على

(١) ينظر مقال: الظنيات بين الثوابت والمتغيرات، د. عمار العيسى، المنشور في مجلة رواء بالعدد الأول.
(٢) ينظر: شبهات حول تطبيق الشريعة الإسلامية، د. صلاح الصاوي، ص (٥٠).
(٣) سيرة ابن هشام (٦٠٤/٢)، وأخرج مسلم (١٢١٨): (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله).
(٤) مجموع الفتاوى (٤٢٢/١١-٤٢٣).

حرفٍ واحدٍ وهو عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنه لم يحوج أمته إلى أحدٍ بعده، وإنما حاجتُهم الى من يبلِّغُهم عنه ما جاء به.

فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص:

» عموم بالنسبة إلى المرسَل إليهم.

» وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه مَن بعث إليه في أصول الدين وفروعه.

فرسالته كافيةٌ شافيةٌ عامةٌ لا تُحوج إلى سواها، ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته، ولا يخرج نوعٌ من أنواع الحق الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به...

فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمَّته، ولم يُحْوجهم الله إلى أحدٍ سواه، فكيف يُظَن أن شريعته الكاملة - التي ما طرق العالَم شريعةٌ أكمل منها - ناقصة تحتاج إلى سياسةٍ خارجةٍ عنها تُكمِّلها، أو إلى قياسٍ أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟! ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده»[1].

طيلة تاريخ الحضارة الإسلامية كانت الشريعة قادرةً على استيعاب النوازل والتطوُّرات والتعامل معها، واستوعبت الجديد النافع مما جادت به التجارب الإنسانية، بما في ذلك التعامل مع شكل الدولة وأنظمتها

والتاريخ شاهد!

فالدولة الإسلامية حكمت مساحات كبيرة من الأرض وشعوبًا مختلفة الأعراق والحضارات طوال أربعة عشر قرنًا من الزمان تحت ظلِّ الشريعة الإسلامية[2]، وجرى أثناء هذا الحُكم العديد من التغيرات والوقائع والأحداث، وتطوَّرت العلوم والصناعات، وتطوَّرت الحياة، ومع ذلك فلم تكن الشريعة في يوم من الأيام عائقًا في طريق العلم والتطوُّر بل كانت دافعًا للنهوض الحضاري الذي ازدهر وأمدّت أوروبا المعاصرة بالعلوم التي قادتها إلى التطور الذي تشهده الآن.

كما بقيت الشريعةُ قائمةً مطبقةً على مستوى الدولة، واستوعبتها العلوم الشرعية وعلماؤها، ولم تواجه في ذلك مشكلةً وتعذرًا في التطبيق، بل كانت الشريعة قادرةً على استيعاب النوازل والتطوُّرات والتعامل معها، واستوعبت الجديد النافع مما جادت به التجارب الإنسانية في الحضارات الأخرى بما في ذلك التعامل مع شكل الدولة الحديثة.. وما الذي جاءت به الحضارة المعاصرة وفيه مصلحة معتبرة ولم يأخذ به المسلمون بحجّة عدم موافقته للشريعة؟

والدولة الحديثة بما فيها من مؤسسات وأدوات وآليات ليست بدعًا في التاريخ، فالشريعة قادرة على استيعاب الصالح منها وتوليد بدائل للخاطىء منها تحقق مقاصد عليا.

٢- الوجه الثاني: هناك فرق بين النظام السياسي والحضارة:

فالنظام السياسي من ناحية النظرية السياسية يُنظر له من جانب مُناسبته للعصر من عدمه، من زاوية: مدى شموله لفلسفة ومبادئ الحكم النظرية والنظم المناسبة، وهذا ما تحويه النظرية السياسية الإسلامية[3].

أما ما يتعلق بجانب الحضارة: فهذا أمر خارج موضوع النظام السياسي، وهو متعلق بالمبادئ النظرية والفلسفية التي يقوم عليها النظام أو النظرية السياسية، فالحضارة ترتبط بالنظرية الفلسفية أكثر منه من نظام الحكم، لذا فإن الأنظمة الحديثة ترتكز في حضارتها إلى فلسفات وليس إلى مجرد نظم، كالشيوعية والليبرالية وغير ذلك.

(١) إعلام الموقعين (٤/٢٨٥-٢٨٦).

(٢) قد يعترض معترض قائلًا: خلال هذه القرون لم تكن الدول على مرتبة واحدة في إقامة الدين وتطبيق الشريعة، وهذا الأمر غير مسلم به؛ فخلال هذه القرون بقيت الشريعة هي الحاكمة في عامة شؤون الدولة والمجتمع، والضابطة لشؤون الحكم والحاكم، ولم يحدث أن نُحيت بالكلية، أو غيرت قوانينها إلى قوانين وضعية كما حصل في العصر الحالي، مع التسليم بوقوع نقص وخلل في عدد من التطبيقات التي خرجت عن هذا العموم، لكنه لا يلغي الأصل ولا ينقضه.

(٣) ينظر مقال: النظرية السياسية الإسلامية مقارنةً بالنظريات السياسية الحضارية، أ. ياسر المقداد، مجلة رواء، العدد الخامس.

فإن كان السؤال أنه هل تتنافى النظرية السياسية في الإسلام مع هذه الحضارة المعاصرة القائمة على هذه الفلسفات والأصول العلمانية والليبرالية؟

فالجواب بكل تأكيد: نعم، فهذه الفلسفات مناقضةٌ للشريعة من الأساس ولهدف إقامة الدولة وإعمار الأرض، والشريعة لا تقبل بهذه الأفكار المنحرفة، وحينها فالتعارض في حقيقته هو مع هذه الأصول الفلسفية، ولا يُسلَّم حينئذ أنَّ هذه الأفكار هي جزءٌ من الدولة الحديثة إلا إذا أريد فرض إيديولوجيا معينة أو نموذج محدد، فكثير من الدول المعاصرة لا تطبق هذه النظريات.

وهذا الأمر ليس خاصًا بالشريعة الإسلامية، فلكلِّ فلسفة رؤية معرفية كاملة، والنظرية السياسية الإسلامية تقوم على فلسفة حضارية كاملة مختلفة عن الفلسفة التي تستند إليها الحضارة العلمانية المعاصرة.

وهذا لا يمنع المسلمين من الاستفادة من نظام الدولة الحديثة، والعمل على تطبيق الشريعة، مع الحفاظ على هويتهم الدينية والحضارية وتجنب تلك الأصول المخالفة للشرع كما سيأتي في الفقرة التالية.

قدَّم العلماء والباحثون الكثير من الدراسات والبحوث التي تناولت المتغيِّرات السياسية المعاصرة، وتنزيل الأحكام الشرعية عليها، وقدَّموا العديد من الحلول لمشاكلها. فليس في الشريعة الإسلامية وعلمائها ضعفٌ أو عجزٌ عن مواكبة التطورات والتغيُّرات والمستجِدَّات

المسألة الرابعة: العجز عن تطبيق كامل الشريعة لا يعني عدم تطبيق أي شيء منها:

قد يقول المعترض: في ظل الدولة الحديثة «العلمانية» لا يمكن تطبيق الشريعة تطبيقًا كاملاً؛ فهناك العديد من المجالات التي ستعجزون عن تطبيق الشريعة فيها كليًا أو جزئيًا، وبالتالي فلن تكون هناك «دولة إسلامية» أو شريعةٌ مطبَّقة بالمعنى الذي تريدون.

ويزيد البعض بقوله: إنَّ أكبر عوائق تطبيق الشريعة هي مسألة التقنين؛ لأنها صياغة الأحكام الفقهية بمفردات قانونية غربية، وأنَّ الشريعة في جوهرها روحية تعبُّدية، أما مقاصد التشريع الغربي في جوهرها فهي ماديةٌ بحتة، مما يؤدِّي عند تقنين الأحكام الشرعية إلى اجتزائها أو اختزالها، والخروج بها عن مقاصدها.

ويمكن الإجابة عن ذلك بأمور:

١. من القواعد الشرعية: أنَّه «لا واجب مع العجز»، وأنَّ «الميسور لا يسقط بالمعسور»؛ فعدمُ القدرة على العمل ببعضها لا يلغي العمل بالمستطاع منها.

فمتى عمل الإنسان بما يستطيع من تكليفات، وعَجِز عن بقيَّتها: فإنه قد أدَّى ما عليه، ولا يُؤاخَذ بما لا يستطيعه، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وجاء في صحيح مسلم: (أنَّ الله تعالى قال: قد فعلت)[(١)]. وقال في عموم الأوامر: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

قال الإمام الشاطبي: «ثبت في الأصول أن شرط التكليف أو سببه: القدرة على المكلف به، فما لا قدرة للمكلف عليه لا يصح التكليف به شرعًا»[(٢)].

وليس هذا من الأخذ ببعض الكتاب وترك بعضه القائم على التشهِّي والهوى، بل هو من العمل بالمستطاع والمقدور عليه، بسبب العجز وعدم القدرة[(٣)].

٢. وفي الجانب النظري: قدَّم العلماء والباحثون الكثير من الدراسات والبحوث التي تناولت المتغيِّرات السياسية المعاصرة، وتنزيل الأحكام الشرعية عليها، وقدَّموا العديد من الحلول لمشاكلها[(٤)]. فليس في الشريعة الإسلامية أو

(١) أخرجه مسلم (١٢٦).
(٢) الموافقات (١٧١/٢).
(٣) وبهذا يتبين عدم دقة العبارة التي يرددها البعض «خذوا الإسلام كله أو دعوه كله».
(٤) إنَّ بذل الجهد في إيجاد الحلول الشرعية للمتغيرات السياسية على درجة عالية من الأهمية، فهو وإن كان في بدايته غير شامل، أو فيه ضعف أو قصور، فإنه لابد أن يثمر في نهاية المطاف نتائج إيجابية، أما الاستكانة للواقع المر دون إنكار المنكر، أو التحرك العملي لتغيير الواقع فهو غير مثمر، ومثل ذلك: لو أن العاملين في مجال الاقتصاد والعلوم الاجتماعية تحركوا بإيجابية ومسؤولية عالية في مجال «أسلمة» هذه العلوم، وإيجاد بدائل وحلول شرعية لمنتجاتها لكنا الآن أوجدنا منتجاتٍ اقتصادية إسلامية، أو علومًا اجتماعية إسلامية، على الرغم مما يعتريها من نقصٍ أو خلل.

قابلية الشريعة الإسلامية للتطبيق في عصرنا

العاملين في مجالها ضعفٌ أو عجزٌ عن مواكبة التطورات والتغيُّرات والمستجدَّات، لكنَّ غالب الحال اليوم سببه عدم الرغبة والمنع والإفشال المتعمَّد من الأطراف الأخرى.

وهنا لا بدَّ من التفريق بين القابلية للتطبيق نموذجًا واقعيًا غير مُغرق في المثالية (طوباوية)، وبين عدم القدرة على التطبيق لصعوبات في الواقع:

* أما قابلية الشريعة للتطبيق فهذا ما نتحدث عنه، وهي تختلف عن النماذج غير الصالحة للتطبيق لقصور ذاتي فيها؛ بسبب عدم تضمُّنها للتشريعات، أو احتوائها على تشريعات تعارض العلم والحياة، والشريعة من هذه الجهة أثبتت قابليتها للتطبيق عصورًا طويلة يدل عليها تاريخنا الإسلامي الطويل.

* أما إن كان الأمر متعلقًا بعدم القابلية للتطبيق لصعوبات الواقع، فهذا يَرِدُ على كلِّ الأنظمة والنظريات السياسية وليس خاصًا بالنظام السياسي الإسلامي، وإيراد الاعتراض هكذا دون التفريق بين الأمرين (القابلية لصلاحية النموذج نفسه، أو عدم القابلية لصعوبات الواقع) هو خلط ومغالطة منهجية لا يمكن التسليم بها.

٣. عدم إقامة الشريعة وتطبيقها في الدولة والمجتمع هو خللٌ ومنكرٌ عظيم، والواجب على المسلمين عمومًا وأهل العلم والمتعاملين بالسياسة خصوصًا العمل على إزالة هذا المنكر ولو بتخفيفه قدر المستطاع، كما هو الحال في كل منكر[1].

(١) وينظر: شرح التوصيات الختامية لندوة «رؤيةٌ شرعيةٌ في المصطلحات السّياسية المثيرة للجدل» المنعقدة في استانبول يوم الأربعاء ٣ ربيع الثاني ١٤٣٧هـ الموافق لـ١٣ كانون الثاني ٢٠١٦م. على موقع هيئة الشام الإسلامية.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «فعلى هذا؛ لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفَّار، وعمِلوا على جعْل الولايةِ جمهوريَّةً يتمكَّن فيها الأفرادُ والشّعوب مِن حقوقهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، لكان أَوْلَى مِن استسلامهم لدولةٍ تَقضي على حقوقهم الدِّينيّة والدُّنيويّة، وتحرِصُ على إبادتها، وجعْلِهم عمَلَةً وخدمًا لهم، نعمْ إنْ أمكن أنْ تكون الدولةُ للمسلمين وهم الحُكَّام، فهو المتعيِّنُ، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبةِ فالمرتبةُ التي فيها دفعٌ، ووقايةٌ للدِّين والدُّنيا مُقدَّمةٌ، والله أعلم»[1].

وفي توضيح إمكان السّكوت على ما يخالف الشريعة، وربّما الإعانة عليه إذا ترتّب على ذلك مصلحةٌ راجحة قال العزّ بن عبد السلام: «يجوز الإعانةُ على المعصيةِ لا لكونها معصيةً، بل لكونها وسيلةً إلى تحصيل المصلحة الرّاجحة، وكذلك إذا حصل بالإعانةِ مصلحةٌ تربو على مصلحةِ تفويت المفسدة، ومبنى هذه المسائلِ كلِّها على الضّروراتِ، ومَسِيس الحاجات، وقد يجوز في حال الاضطرار ما لا يجوز في حال الاختيار»[2].

> **المسلمون ليسوا بين خياري: الأخذ بكل تفاصيل الدولة الحديثة ولو كان على حساب الدين، وبالتالي: عدم تطبيق الشريعة بحجة وجود مخالفات شرعية. أو تطبيق كامل الشريعة دون نقص أو قصور؛ بل هناك خيار ثالث وهو إقامة الدين وتطبيق الشريعة بحسب المقدور عليه وبالقدر المستطاع**

وفي عام ١٩٤١م قام الشيخ أحمد شاكر بتوجيه رسالة إلى رجال القانون والقضاة في مصر ينصحُهم فيها أن يحكُموا بشريعة الإسلام ويستبدلوا القوانين الوضعية بالقوانين الشرعية، وختم رسالته قائلاً:

«أما إذا أبيتم -وأُعيذكم بالله أن تأبَوا- فسأدعو رجال الأزهر، علماء الإسلام، رجاله ورجال مدرسة القضاء ودار العلوم، وسيستجيبون لي، وسيحملون عِبء هذا العمل العظيم، وسيرفعون راية القرآن بأيديهم القوية التي حملت مصباح العلم في أقطار الإسلام ألف عام، وسينهضون به كما نهضوا من قبل بكلِّ حركات الرقي والتقدم في الأمة، وفيهم رجالٌ لا يبارَون علمًا وكفاءة وحكمة وعزمًا، وسيجدون الأعوان الصادقين المخلصين منكم رجالَ القانون، ومِن سائر طبقات الأمة، وإذ ذاك سيكون السبيل إلى ما نبغي مِن نصر الشريعة، السبيل الدستوري السّلمي: أن نَبُثَّ في الأمة دعوتنا، ونجاهدَ فيها ونجاهرَ بها، ثم نصاولكم عليها في الانتخاب، ونحتكم فيها إلى الأمّة، ولئن فشلنا مرة فسنفوز مرارًا، بل سنجعل مِن إخفاقنا -إن أخفقنا في أول أمرنا- مقدمة لنجاحنا، بما سيحفز من الهمم، ويوقظ من العزم، وبأنه سيكون مبصرًا لنا مواقع خطونا ومواضع خطئنا، وبأن عملنا سيكون خالصًا لله وفي سبيل الله. فإذا وثقت الأمة بنا ورضيت عن دعوتنا واختارت أن تحكم بشريعتها طاعة لربها، وأرسلت منا نوابها إلى البرلمان فسيكون سبيلنا وإياكم أن نرضى وأن ترضوا بما يقضي به الدستور، فتلقوا إلينا مقاليد الحكم، كما تفعل كل الأحزاب إذا فاز أحدها في الانتخاب؛ ثم نفي لقومنا -إن شاء الله- بما وعدنا، من جعل القوانين كلّها مستمدة من الكتاب والسنة.

ومن بشائر الفوز وأمارات النجاح، بإذن الله: أن رأينا كثيرًا من ذوي الرأي يقولون بقولنا، ويتمنون أن تستجاب دعوتنا، ويرجون أن تعود الأمة إلى دينها وشريعتها، وأن بعض الجمعيات القوية جعلت هذا المقصد من أهم مقاصدها»[3].

فالمسلمون ليسوا بين خياري: الأخذ بكل ما نادت به الدولة الحديثة ولو كان على حساب الدين، وبالتالي: عدم تطبيق الشريعة بحجة وجود مخالفات شرعية في الدولة الحديثة. أو تطبيق كامل الشريعة دون نقص أو قصور؛ بل هناك خيار ثالث وهو إقامة الدين وتطبيق الشريعة بحسب المقدور عليه وبالقدر المستطاع[4].

وهنا لا بدَّ من التنبُّه إلى أمور:

(١) تفسير السّعدي «تيسير الكريم الرحمن» ص (٣٨٨).
(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٨٧/١).
(٣) الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين في مصر: لأحمد شاكر، ص (٤٠-٤١).
(٤) وحين يعمل الناس بالقدر المستطاع فإن عملهم كله يوصف بأنه مشروع، وليس فقط جزء الاستطاعة منه، فلا يأثمون بذلك، ينظر مقالة: المشروع الإسلامي والمشروع الوطني، مجلة نور الشام، العدد الرابع والخمسون، د. معن عبد القادر.

أ. أخذ مسألة تطبيق الشريعة بعين الاعتبار والاهتمام، وعدم الركون إلى الكسل بحجة عدم القدرة.

ب. عدم الانجرار إلى الابتذال في التأويل والتنازل عن الثوابت بحجَّة الضرورة والمصلحة، كتعطيل الحكم بالشريعة، أو إقرار قوانين مخالفة لها بحجة مصلحة الدولة، أو إسباغ الشرعية على الحاكم الظالم الخارج عن شرع الله، أو عقد التحالفات مع الكيانات والدول المحاربة لشرع الله، لمصالح حزبية ضيقة، أو بحجة السماح للدعوة بالعمل، ونحو ذلك.

وهذا لا يمنع المسلمين من الاستفادة من نظام الدولة الحديثة، والعمل على تطبيق الشريعة، مع الحفاظ على هويتهم الدينية والحضارية وتجنب تلك الأصول المخالفة للشرع.

٤. أما ما يتعلق بعدم صلاحية أحكام الشريعة للتقنين :

فهذا الأمر غير مُسلَّم به بإطلاق؛ فمع صِحة الحديث عن الفروق بين أساس تشريع القوانين الغربية وأساس تشريع الأحكام الشرعية، إلا أنَّ هذا لا يعني عدم إمكانية التعامل معها، أو تقنينها، وما جهود الفقهاء في تقنين أحكام الأسرة والمعاملات المالية إلا دليلٌ على إمكانية ذلك.

كما أنَّ الشريعة لا تقتصر في حُكمها بين الناس على مجرَّد الأحكام والقوانين، بل تعتمد على منظومة متكاملة من الأخلاق والآداب، وربط العمل بالثواب الأخروي، ونحو ذلك.

كيف يترك المسلمون نظامًا يثقون في مصدره، ويعلمون إحاطتَهُ بما يصلُح للبشر ويُسعدهم، وعاشوا في كنفه قرونًا، وحقق لهم السعادة والتقدم والرقي، وشهد العالم بعدالته، ثم يجرِّبون قوانين وأنظمة بشرية يعتريها النقص والخطأ، وما زال أصحابها يكتشفون خطأ كثير من قوانينها؟!

وختامًا:

فإنَّ ادِّعاء أنَّ النظام السياسي الإسلامي ومسائل السياسة الشرعية لا تصلُح لهذا الزمان يؤدِّي إلى نتيجةٍ مفادها: أنَّ أحكام الشريعة الإسلامية بمُجملها حالةٌ تاريخية مضتْ وانقضتْ، وأنها غيرُ صالحة للتطبيق في أي زمان أو مكان مختلف، وهي دعوى أثارها المستشرقون للطعن في الشريعة الإسلامية، وقد بيَّن أهل العلم والمفكِّرون تهافُتها ونقضوها.

كما يؤدِّي إلى ادِّعاء أنَّ الشريعة غيرُ شاملة ولا كاملة، وأنَّه يجوزُ الخروج عن أحكام الشريعة في المسائل السياسية، وفي هذا خروجٌ عن الدِّين، وطعنٌ في حِكمة الله تعالى وكمالِ عِلمِه حيثُ رضيَ لنا دينًا ناقصًا وألزمَنَا بالعمل به إلى يوم القيامة -حاشاه-، قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: «فلفظ الشرع والشريعة إذا أريد به الكتاب والسنة؛ لم يكن لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه، ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقًا إلى الله غير متابعة محمد ﷺ باطنًا وظاهرًا فلم يتابعه باطنًا وظاهرًا فهو كافر»[1].

وبالمقابل: كيف يترك المسلمون نظامًا يثقون في مصدره، ويعلمون إحاطتَهُ بما يصلُح للبشر ويُسعدهم، وعاشوا قرونًا في كنفه، فحقق لهم السعادة والتقدم والرقي، وشهد العالم بعدالته، ثم يجرِّبون قوانين وأنظمة بشرية يعتريها النقص والخطأ، ما زال أصحابها يكتشفون خطأ كثير من قوانينها، ويضيفون عليها ويُعدلون، ويجعلون العالم حقول تجارب لمخرجات عقولهم الناقصة وأمزجتهم المتقلبة؟!.

لقد شقي العالم بعد تراجُع الدور الحضاري للإسلام بشريعته العادلة، فشهد أسوأ الأنظمة وأكثرها جرمًا؛ وقامت أنظمة استعمارية شمولية احتلت البلدان وقتلت ملايين البشر واستعبدت الإنسان وانتهكت حرماته، وأشعلت أفظع الحروب التي جرِّبت فيها أفتك الأسلحة، وحُورب فيها الإيمان بالله تعالى وفضائل الأخلاق، حتى وصلت تجاربهم إلى تشويه الفطرة ونظام الأسرة ومحاربته.

فعن أي قوانين يتحدثون، وأيَّ شريعة يحاربون؟!!

(١) مجموع الفتاوى (٢٦٣/١١).

قضايا معاصرة

استلهام السنن الإلهية في التخطيط الاستراتيجي

أ. طلحة الناصر (*)

هذه المقالة عن السنن الإلهية، واستلهام قوانينها في استرداد الدور الحضاري للمسلمين، عبر أدوات التخطيط الاستشرافي أو الاستراتيجي، وهي محاولة لوضع لبنة تقلل الفصام الموهوم الذي أنشأ مفاهيم مغلوطة أو مشتتة، كالصراع بين الغيب والوجود، وبين الروح والجسد، وبين الفرد والجماعة، وفي مفاهيم الفناء والخلود، وفي النظرة للدنيا والآخرة، بدلاً من تصالح هذه المفاهيم وفق أقصى حالات التوافق والانسجام، تمامًا كما أمر الله، في قوانين ثابتة لا تتغير

مدخل:

كل ما يقع في هذا العالم من حوادث ليس فيه مجال للمصادفة، ولا يخبط خبط عشواء، وإنما يحدث وفق قوانين عامة، ثابتة صارمة، لا يخرج عن أحكامها شيء. فجريان الشمس ومنازل القمر وسير السحاب وإنبات الزرع، كل ذلك يسير وفق نظام كوني دقيق.

والبشر كذلك بحراكهم الجمعي والأممي يخضعون لقوانين كونية ثابتة تحكم أحوالهم في الحياة، وما يقع عليهم من أحداث، وما يترتَّب على ذلك من نتائج حضارية، كالرفاهية أو الفقر، والعز أو الذل، والرقي أو التخلف، والقوة أو الضعف.

وهذه القوانين هي «السنن»، التي قال الله عنها: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وهي «طريقته وحكمته سبحانه وتعالى»[١] ، وقال ابن القيم رحمه الله: «فسنته سبحانه عادته المعلومة»[٢]، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أن السنة، هي: «العادَةُ التي تَتَضَمَّنُ أَنْ يَفْعَلَ في الثانِي مِثْلَ ما فَعَلَ بِنَظِيرِهِ الأَوَّلِ»[٣]، ويمكن تعريفها بأنها «القانون

(*) باحث مهتم بقضايا التخطيط والتربية.

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، للراغب، ص (٤١٥).

(٢) شفاء العليل (٤٨/٢٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/١٣).

الدائم الذي وضعه تعالى للكون والإنسان، وعادته المعلومة في أوليائه، وفي أعدائه، وطريقته المتبعة في معاملته للبشر»[1].

وثمة فرق بين أثر هذه القوانين والسنن على الكون وعلى الإنسان، فالكون وما فيه من أفلاك وأجرام وجبال وبحار وأشجار ودوابٍ وغيرها.. كلُّها ليست مخيَّرة، بل هي مسيرةٌ ومسخرةٌ وفق هذه القوانين كما يريد لها القاهر الجبار سبحانه، أما الإنسان فهو مخيَّرٌ فيما يفعل؛ وقد يختار الخير أو يختار الشر، ولذلك وضع الله له قوانين تناسب أحواله وأفعاله واختياراته، وتكون نتائج هذه القوانين مبنية على ما يختاره البشر أفرادًا وجماعات من الأقوال والأفعال، قال ابن تيمية رحمه الله: «وأنه -تعالى- يقضي في الأمور المتماثلة بقضاء متماثل لا بقضاء مخالف فإذا كان قد نَصَرَ المؤمنين لأنَّهم مؤمنون، كان هذا موجبًا لنصرهم حيث وُجد هذا الوصف، بخلاف ما إذا عصوا وجرحوا إيمانهم كيوم أحد؛ فإنَّ الذنب كان لهم، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فعمَّ كلَّ سنة له، وهو يعمُّ سُنَّته في خلقه وأمرَه في الطبيعيات والدينيات[2].

> **الكون وما فيه مسيَّر ومسخَّر وفق السنن والقوانين كما يريد لها الجبار سبحانه، أما الإنسان فمخيَّرٌ، وقد وضع الله له قوانين تناسب أحواله وأفعاله واختياراته، ونتائج هذه القوانين مبنية على ما يختاره البشر أفرادًا وجماعات**

والإنسان العاقل لا يُصارع هذه القوانين والسنن ليُغيِّرها، ولا يُعارضها، بل لا يستطيع الناس ولو اجتمعوا على أن يغيروا شيئًا من هذه القوانين، لأنها -ببساطة- قوانين، أي مسلَّمات وليست فرضيات قابلة للتجربة والخطأ. والذي يسعُ الإنسان ويحسُنُ به: أن يزيد من علمه بهذه القوانين.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٢-٤].

> **العاقل لا يُصارع القوانين والسنن الإلهية ولا يُعارضها؛ لأنها مسلَّمات، وليست فرضيات قابلة للتجربة والخطأ. والذي يسعُ الإنسان ويحسُنُ به: أن يزيد من علمه بهذه القوانين**

استلهام السنن «القوانين» في مدخلات التخطيط الاستراتيجي:

والحديث في هذه المسألة يكون عبر ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: طريق معرفة هذه القوانين:

أمرنا الله تعالى بمعرفة القوانين، وهي السنن، والأخذ بها، وبقدر ما يعرف الإنسان من تفاصيل وجزئيات هذا القانون يكون مقدار الاستفادة منه. قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وهذه القوانين على نوعين: نوع من القوانين الكونية متاح للجميع، مثل معرفة مواسم الزرع والحصاد، وأوقات الغروب والشروق والخسوف، وقوانين الذرة والفيزياء والفلك، فهذا العلم مشاع للجميع ولا يختص المسلمون بشيء منه باعتبارهم مسلمين. قال تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس: ٣٨]. فهذه السنن والقوانين تقع بطريق القهر وعلى الفور.

والنوع الآخر يتعلَّق بالأمم والجماعات، ومعرفته متاحة بالوحي المنزّل، وهو في ثبوته واطِّراده مثل الأول، لكن الفقه به أقل انتشارًا، لخصوصية المخاطب به، ولأن تمييزه أصعب وأدق، ومثاله قوانين الذنوب والمعاصي، وقوانين التمكين والاستخلاف للمؤمنين. قال تعالى عن قانون العدل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]؛ فالجزاء بحسب سنّة الله تعالى أثر طبيعي للعمل لا يتخلف عنه. وهذه السنن تقع لا محالة لكنها تحمل صفة الإمهال بعض الوقت.

(١) خطبة للشيخ محمد صالح المنجد بعنوان «مقدمات في السنن الإلهية» على موقعه الإلكتروني.
(٢) رسالة في لفظ السنة في القرآن، لابن تيمية، مطبوعة ضمن جامع الرسائل (٥٤/٢).

ولأجل هذا الفرق بين الأحداث الكونية من جهة، والأحداث البشرية من جهة أخرى، فإن بعض الناس يغفلون عن سنة الله في تصرُّفات وسلوك الأفراد والأمم، ويظنُّون أنها لا تخضع كما تخضع الظواهر الكونية للقانون الإلهي.

ثمة فرق بين الأحداث الكونية والأحداث البشرية، وبسبب هذا الفرق فإن بعض الناس يغفلون عن سنة الله في تصرُّفات وسلوك الأفراد والأمم، ويظنُّون أنها لا تخضع للقانون الإلهي كما تخضع الظواهر الكونية

المسألة الثانية: قانون السببية:

قانون إلهي عام يؤثر في عامة ما سواه من القوانين، وهو من النوع الذي تتاح معرفته للعقلاء كافة، فقد دلّ القرآن الكريم والعقل السليم على أنَّ كلَّ شيءٍ يحدُث بسبب، سواءً كان هذا الحدث يتعلَّق بالجماد أو النبات أو الحيوان أو الإنسان أو الأجرام السماوية أو الظواهر الكونية المادية المختلفة.

وقانون السببية الذي هو ربط المسببات بأسبابها والنتائج بمقدماتها، هو قانون عام شامل لكل ما في العالم ولكل ما يحصل للإنسان في الدنيا والآخرة. قال ابن تيمية: «فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات»[1].

فمن الأسباب المادية قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، ومن الأسباب المعنوية قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال: ٢٩].

والقرآن الكريم مليء بترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة[2]: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] هنا ذكر النتيجة مرتبة على ما سبق منهم، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] وهنا علق النتيجة على حصول مقدمتها. وقانون السببية أحد أهم دواعي التدبر في السنن.

وهناك تفصيلاتٌ كثيرة في هذا القانون ليس هذا مجالُ بسطِها، غير أن الإشارة تجدُر إلى أن السبب إنما يستوجب مُسَبَّبَه إذا توفرت شروط عمل هذا السبب وفعاليته واستدعاؤه لمسبَّبه، كما لا بد من انتفاء الموانع التي تعيق عمل هذا السبب أو تسلبه فعاليته بحيث يصبح غير قادر على استدعاء مسبَّبه.

فالأكل مثلًا سبب للغذاء والشبع واستدامة الحياة، لكن بشرط سلامة أعضاء الإنسان الضرورية لتلقي الطعام والاستفادة منه، وانتفاء الموانع والعوائق التي تعيق عمل هذه الأعضاء في انتفاعها من الأكل.

والزرع سببه حرث الأرض وإلقاء البذر، وشرطه صلاحية الأرض للإنبات وصلاحية هذا البذر للنبات وتوفر الماء الكافي وانتفاء الموانع كالآفات التي تهلك الزرع والثمر أو تمنع نموه، ... وهكذا.

قال الشاطبي: «وأما إذا لم تفعل الأسباب على ما ينبغي ولا استكملت شرائطها ولم تنتف موانعها فلا تقع مسبَّباتها، شاء المكلَّف أو أبى، لأن المسببات ليس وقوعها أو عدم وقوعها لاختياره. وأيضًا فإن الشارع لم يجعلها أسبابًا مقتضية لمسبَّباتها إلا مع وجود شرائطها وانتفاء موانعها، فإذا لم تتوفر لم يستكمل السبب أن يكون سببًا شرعيًا، سواء علينا أقلنا إن الشروط وانتفاء الموانع أجزاء أسباب أم لا، فالثمرة واحدة»[3].

وفي التخطيط الاستراتيجي، فإن مفهوم السبب والنتيجة (Cause and Effect) هو أحد أهم المفاهيم التي تقوم عليها عمليات التخطيط الاستراتيجي في سائر المنهجيات.

ينبغي أن ينصبَّ اهتمام الجماعات العاملة على قانون «التنقية والفرز»، والذي يعتني بتنقية الصفوف من المنافقين والدخلاء، وتطوير برامج وآليات عمل تربوية وتنظيمية لهذا المقصد الاستراتيجي، أكثر من الاهتمام باستخدام ذات القانون للحكم على الجماعة الفلانية أنها تفككت بسبب المنافقين والدخلاء

(١) مجموع الفتاوى (٨/٧٠).
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣/٤٩٨).
(٣) الموافقات للشاطبي (١/٢١٨).

المسألة الثالثة: التفريق في استخدام القوانين بين مدخلات التخطيط ومخرجاته:

من المعلوم أن قياس الأعمال والاستراتيجيات يحصُل عبر مؤشرات معيارية يطلق عليها اسم مؤشرات الأداء الرئيسة (KPIs -Key Performance Indicators) وهي: «مقاييس كمية تساعدنا على معرفة مقدار تقدمنا باتجاه تحقيق الاستراتيجية».

وهذه المؤشرات على نوعين:

١. مؤشرات السبب أو «المؤثر» (Lead) وتركز على ما يجب أن نقوم به من أعمال ومبادرات لتحقيق النتائج المرجوة من الاستراتيجية.

٢. مؤشرات النتيجة أو «الأثر» (Lag) وتركز على قياس الانجاز المحقق من هذه المبادرات والأعمال تحت سقف الاستراتيجية.

وفي الجملة: إذا أحسنَّا القيام بـ (مؤشر السبب)، فسنتمكن من تحقيق (مؤشر النتيجة)، ونضرب مثالاً للتوضيح:

في العملية التعليمية: فإنَّ نسبة عدد المعلمين إلى أعداد الطلاب، وجاهزية المناهج هي مؤشراتُ سبب، بينما عدد الطلاب الناجحين ونسبة النجاح هي مؤشرات نتيجة.

وكما يُستخدم مبدأ السبب والنتيجة والعناية بالمقدمات في زراعة الأرض، فكذلك يستخدم القانون نفسه ضمن أدوات التخطيط الاستراتيجي في بطاقة الأداء المتوازن، فهي تضع تراتبية الأعمال الاستراتيجية، عبر مبدأ السبب والنتيجة.

ونحن بحاجة للتركيز على مؤشرات السبب في النظر إلى السنن باعتبارها قوانين وقواعد «مدخلات» في عملنا الاستراتيجي، أكثر من استخدامها أدوات لتحليل «النتائج» على ما يجري في واقع الأمة اليوم، مع أنهما مترابطان على مبدأ السبب والنتيجة (Cause & Effect)، إلا أن التفريق بينهما في غاية الأهمية للنهوض بالعمل.

فمثلاً:

» ينبغي أن ينصب اهتمام الجماعات والكيانات على قانون «التنقية والفرز»، والذي يعتني بتنقية الصفوف من المنافقين والدخلاء، وتطوير برامج وآليات عمل تربوية وتنظيمية لهذا المقصد الاستراتيجي، وينبغي أن ينصبَّ الاهتمام بهذا الأمر أكثر من الاهتمام باستخدام ذات القانون للحكم على الجماعة الفلانية أنها تفككت بسبب المنافقين والدخلاء.

» كما ينبغي التركيز على قانون «الجماعة»، والذي يعتني بوحدة الصف، ويطلق المبادرات التي تجمع الكلمة على مقصد مركزي وفكرة محورية، أكثر من استخدام القانون ذاته في تحليل حالة التشرذم.

بهذا نخرجُ من جدلية نقاش النتائج الذي لا يعود بفائدة كبيرة، إلى واقع العمل الرحب الذي يستوعب الجميع، فيقل الشغف بالحكم على الأفراد والجماعات والمؤسسات، من قبيل: (هل البلاء الذي أصابها هو بلاء الاصطفاء وما قبل التمكين؟ أم هو بلاء التطهير؟ أم بلاء الانتقام؟ وهل زوال هذه الأسماء والكيانات الكبيرة هو محضُ اختيارِ قادَتِها نحو التطوير؟ أم هو قانون الاستبدال؟ ... إلخ).

ونخرجُ بوعيٍ من الحالة الحُكمية (إطلاق الأحكام) التي تصيب العاملين بالإحباط أحيانًا، وبالشعور بكمالٍ زائفٍ أحايينَ أخرى، ولنُعطِها قدرَها الذي تستحقُّه فحسب، وننتقل إلى العمل الجادِّ الذي يستخدم هذه القوانين في توليد المبادرات والمشاريع البناءة، مستشعرين القانون الإلهي الذي لا يتبدَّل: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

نموذج تطبيقي على خطتين استراتيجيتين وفق قوانين مختلفة:

كلمة «استراتيجية» لفظ أعجمي مقتبس من كلمة «Stratégie» الفرنسية أو «Strategy» الإنجليزية، وأصلها في هاتين اللغتين من الكلمة اللاتينية «Strategos»، وهو الجيش. وبهذا المعنى تكون كلمة «Strategos»، هي قائد الجيش، و «Stragegia» هي فنُّ قيادة الجيش، أو فن قيادة الحروب. ثم اتسعت دائرة استعمال المصطلح في العصر الحديث ليصبح دالًّا على فنّ التخطيط أو فنّ التدبير في جميع مجالات الحياة المعاصرة.

ولقد تطوَّر مفهوم الاستراتيجية تطورًا كبيرًا عبر التاريخ. فهي عند كارل فون كلاوزفيتز (Carl von Clausewitz) -كبير الكتَّاب العسكريين في القرن التاسع عشر: «فن استخدام المعارك وسيلة

الاستفادة من قانون السببية في التخطيط الاستراتيجي

مؤشرات السبب أو «المؤثر Lead»

تركز على **ما نقوم به** من أعمال ومبادرات لتحقيق النتائج المرجوة من الاستراتيجية

مؤشرات النتيجة أو «الأثر Lag»

تركز على **قياس الإنجاز** المحقق من هذه المبادرات والأعمال تحت سقف الاستراتيجية

إذا أحسنَّا القيام بـ (مؤشر السبب)، فسنتمكَّن من تحقيق (مؤشر النتيجة)

لتحقيق أهداف الحرب». ثم جاء أحد تلامذته من بعده، وهو القائد هلموث فون مولتكه (Helmuth von Moltke) فطوّر هذا المفهوم ليصبح دالاً على «فن استخدام الوسائل الموضوعة تحت تصرُّف القائد العسكري لتحقيق أهداف الحرب». ثم تطوَّر هذا عند الألماني إيريك لودندورف (Erich Ludendorff)، حيث يعرّف الاستراتيجية بأنها «دخول المعارك الحاسمة للقضاء على جيش العدو وتحطيم إمكانياته»[1].

ولا يخفى على ذي لبٍّ أننا نخوض اليوم صراعًا استراتيجيًا شرسًا، تُستخدم فيه كل أدوات المكر لإخضاع الآخر، أو تنحيته عن ممارسة دوره، ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وإذا أردنا أن ننطلق من المحور الأول في تطبيق عملي، ومثالٍ واقعيٍّ في حال قوانين الصراع، فعلينا النظر بشمولية أوسع لاستشراف الخطط الاستراتيجية والسيناريوهات الأكثر مناسبة وملاءمة لواقع الحال، وطلب المآل.

وفي هذا المحور نتحدَّث عن ثلاثة قوانين إلهية بإيجاز شديد، كلُّها تتحدَّث حول المعنى الأصلي للاستراتيجية، عن قوانين الصراع، ونحاول الجمع بينها في واحدة من تطبيقات السياسة الشرعية، للخروج باستراتيجية مقترحة:

١. قانون المدافعة:

وهو قانون الصراع الأول، القانون الذي يُوضح طبيعة العلاقة بين الحقِّ والباطل، والتدافع بين الحق والباطل يعني بالضرورة التدافع بين أصحابهما، فلا يظنَّ ظانٌّ أنَّ الحق ينتصر هكذا لأنَّه الحق فحسب، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

كما أنَّ التدافع يقع بين الباطل والباطل أيضًا، فلا بد من قوة تقوم بعمل هذه المدافعة حتى يحصل التعارض والتزاحم والتدافع بين الفريقين، وغلبة أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته، أو على الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة.

(١) ويكيبيديا، تحت عنوان (إستراتيجية).

وهذا القانون حتميٌّ لا مفرَّ منه منذ أن خلق الله البشر، قال ابن خلدون: «اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله»، قال: «وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل»[1]، فلا يُتصوَّر إذن أن يعيش الحق والباطل في سِلمٍ من دون غَلَبةِ أحدهما على الآخر.

> **قانون المدافعة هو القانون الذي يُوضح طبيعة العلاقة بين الحقِّ والباطل، والتدافع بين الحق والباطل يعني بالضرورة التدافع بين أصحابهما، كما أنَّ التدافع يقع بين الباطل والباطل أيضًا، وهذا القانون حتميٌّ لا مفرَّ منه منذ أن خلق الله البشر**

٢. قانون هلاك الظالمين، وانتصار المظلومين:

هلاك الظالمين قانون مطَّرد في كتاب الله، قال تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣]، وهلاك الظالم له أجل مضروب عند الله حتى لو كان مجهولاً لنا ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١]، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، ولا يتحقق هلاك الأمم بمجرد الكفر، بل لابد من وجود الظلم.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، قال: «إنَّ المراد من الظلم في هذه الآية: الشرك. والمعنى أنَّ الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامِلُ بعضهم بعضًا على الصلاح وعدم الفساد، والحاصل أنَّ عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما يُنزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات وسَعَوا في الإيذاء والظلم. ويقال في الأثر: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم»[2].

وقال ابن تيمية: «وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إنَّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»[3].

وهذا القانون عامٌّ ينطبق على سائر الأمم، ويمكن العمل عليه من كل أحدٍ في مواجهة الظلم ببذل الحدِّ المطلوب من المدافعة، ليتحقَّق هذا النوع من الانتصار، وهي اشتراطات عامة.

٣. قانون انتصار التمكين:

انطلاقًا من قانون المدافعة، فإن انتصار الإيمان، وتحقُّق التمكين للمؤمنين في الأرض، والاستخلاف بدرجةٍ أكبر، لا بد أن يتحقَّق بقدرٍ من المدافعة أكثر مما يتطلَّبه قانون انتصار المظلومين، حيث يتطلَّب تحقيق شروط هذا النوع من الانتصار (انتصار التمكين والاستخلاف)، وتجنب معوقاته وموانعه.

> **«إنَّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»**
>
> **الاستقامة لابن تيمية**

فمن شروطه:

١. الإيمان الصادق عند أصحابه، وخلوهم من الدَّخَن في جملتهم، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

٢. تقوى الله والإخلاص له، ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

٣. أن يكون القيام نصرة للدين، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

٤. أن يكون الهدف هو إقامة الصلاة وشعائر الدين، ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

(١) مقدمة ابن خلدون، ص (١٤٥).
(٢) ينظر: تفسير الرازي (١٨/٤١٠).
(٣) الاستقامة (٢/٢٤٧).

٥. الصبر، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٦. ذكر الله كثيراً، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ومن العوائق والموانع التي يلزم تفاديها لتطبيق قانون التمكين:

١. ترك الجهاد، فهو مدعاة للعذاب، والاستبدال، ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

٢. التنازع والاختلاف، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

٣. الغرور والرياء، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧].

كما أن السنن والقوانين الإلهية تتشابك وتتداخل، فهي لا تعمل منفردة، فكذلك المشاريع الاستراتيجية يمكن أن تتداخل وتتشابك

استراتيجية مقترحة لرفع الظلم عن أهل الشام والتمكين لهم:

انطلاقًا مما سبق، فإنَّ وضع خطةٍ استراتيجيةٍ لرفع الظلم الواقع على أهل الشام يتطلَّب العمل بقانون خاص ومشاريع ومبادرات لذلك، أما وضع خطة استراتيجية لتمكين دين الله في أرض الشام، فيتطلب العمل بقوانين أخرى إضافية، ولذلك مشاريع ومبادرات زائدة.

والخلط الحاصل في تطبيق القوانين الإلهية على جملة من المشاريع الشامية يجعل نتائج تخبطها واضحة، على الأقل في المنظور الحالي مالم تتغير المعطيات، أو «المدخلات» بمعنى آخر.

وكما أن السنن والقوانين الإلهية تتشابك وتتداخل، فهي لا تعمل منفردة، فكذلك المشاريع الاستراتيجية يمكن أن تتداخل وتتشابك، لكنها أفرزت على هذا النحو لغرض التوضيح.

وعليه يمكن أن يعمل القادة على مشروعين متوازيين: مشروع رفع الظلم، وهو الأسرع والأقرب، والأيسر مناولة، ومشروع التمكين، وهو الأطول زمنًا والأعمق أثرًا في الحضارة البشرية. ولا ينبغي أن نخلط بينهما، فنطلب الثاني بقانون الأول، أو نطلب الأول دون تحقيق متطلباته.

المشروع الأول يعطي مساحة واسعة للمقبول المشترك لكلِّ من يتمركز حول الهدف المحوري ويسعى لرفع الظلم، حتى لو كان من غير المسلمين، كمثل حلف الفضول، والمشروع الثاني يعتني ببناء النخب القيادية التي تقوم على الإيمان العميق، وعلى منظومة الأخلاق الإيمانية، متسلِّحةً في مجموعها بجوانب القوة الروحية والنفسية والمادية والتقنية، مع إيجاد عوامل استمرار وحدة صفها واتساع رقعتها، ما يؤهلها لقيادة مشروع التمكين.

متطلبات أولية:

مشروع رفع الظلم يتطلب القدر الإنساني المشترك لرفعه، والمتمثل في:

١. بلورة الفكرة المحورية التي تدور حول رفع الظلم.

٢. التجمُّع «التعصُّب» عليها بجمع الصف ووحدة الكلمة.

٣. قيادة واعية موجهة.

٤. الإعداد المادي.

ومشروع التمكين يتطلَّب، إضافةً لما سبق:

١. الإيمان الصادق بالله، وخلو الصف القيادي من المنافقين.

٢. القيام نصرة للدين، ولإقامة الدين وشعائره.

٣. الصبر، والمصابرة والمرابطة.

٤. الجهاد المستمر لتحقيق التمكين، ولحمايته وأهله.

٥. تقوى الله والإخلاص له، والتخلص من أي قصد للدنيا.

كما يمكننا اقتراح الاستراتيجيات التالية لتحقيق مشروع التمكين، إضافة لجميع ما سبق:

١. التوسع في إنشاء المدارس والمعاهد، وإعداد المناهج التي تشكل الجيل الجديد المتسلح بالإيمان العميق، المتخلق بالأخلاق السامية، وسطًا بين الإفراط والتفريط، وتنظيم ذلك بطرق مركزية وغير مركزية لتسهيل العلوم على فئات المجتمع كلها.

٢. إطلاق المشروعات التربوية المختلفة، التي تبني مؤسسات الثورة على الأسس الفكرية والأخلاقية الإسلامية الصحيحة.

٣. الاهتمام بالعمل التنظيمي والأمني الذي يحمي الصف من الاختراق، والحذر من الانتهازيين.

٤. تطوير الكوادر المتخصصة، وانتداب الموهوبين والمميزين للتخصصات التي تدعو الحاجة لها، وعمل برامج لبناء القيادات.

٥. تحرير المؤسسة القضائية، وتفعيل الرقابة عليها، ونشر العدل سواسية بين جميع الناس بغض النظر عن أي عوامل أخرى.

٦. تقديم البرامج الإيمانية والمواعظ التي ترقق القلوب، وتذكر الكوادر كافةً بالهَمِّ الرسالي الذي يحملونه، وبأهمية الصبر عليه، وفضل ذلك، حتى لا يستطيلوا الطريق.

أخيرًا ..

هذه استراتيجياتٌ ومبادراتٌ طويلة الأمد، لكن هذا هو الطريق الصحيح، وهذا هو تطبيق القانون الإلهي، وما عداه هو اعتساف لا يوصل إلى تمكين ولا استخلاف.

وصدق الله إذ يقول: ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ويقول: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

لنكسِرْ سلسلة الخطأ

أ. محمود درمش (*)

العدوى لا تسري في الأمراض فحسب، بل تسري في الأذواق والأخلاق والعادات، وتتجاوز ذلك إلى الأفكار والعقائد، وذلك عائد إلى طبيعة التقليد التي جبل عليها البشر، فيحاكي بعضُهم بعضًا بغير وعي، وخطورة ذلك أن الخطأ والانحراف قد يسري في الناس فتتوارثه الأجيال، حتى يصبح كالسلسلة المتتابعة، تستمر بلا توقف ما لم تكسرها يد الإصلاح بالتربية والوعي والعلم

الإنسان بين التعلم والمحاكاة:

الإنسان اجتماعي بطبعه، يأنس بأبناء جنسه، ويخالطهم ويتعاون معهم، ويشكِّلون باجتماعهم كياناتٍ مُتفاوتة في العدد، بدءًا بالأسرة الصغيرة، وانتهاءً بالمجتمعات والدول والأمم.

وللإنسان في نشاطه الدؤوب صفاتٌ معلومة، من أهمِّها: التعلُّم والمحاكاة، وهاتان الصفتان تمنحان الإنسان القدرة على تشكيل واقعه وطريقة حياته؛ فالتعليم يضيف للمتعلِّم معلوماتٍ جديدة، ويجيب عن تساؤلاته، ويبني تصوراته وعقيدته، ويطوِّر أساليب تفكيره، وينقله نقلاتٍ كبيرةً في مختلف أنشطة الحياة، فيصبح أقدر على القيادة ونقل المعرفة والكسب والابتكار، وحل المشكلات ومواجهة المخاوف، والمحاكاة تصنع التماثل والتشابه الذي يُشكِّل المجتمعات والتجمعات، فيتشابه سكان قرية أو مدينة أو أبناء قبيلة أو دولة في أعرافهم وعاداتهم، وملابسهم ومطاعمهم ومشاربهم ولغاتهم، وأساليب تخاطبهم، وأنماط حياتهم وأشكال بنائهم.

فضل العلم على مجرد التقليد:

وللتعلُّم مزية ظاهرةٌ على المحاكاة والتقليد؛ وهي تهيئة الإنسان للخروج عن المألوف المتوارث من خلال كشف ما فيه من خطأ ومخالفةٍ للقواعد والقوانين والشرائع، بينما تبقيه المحاكاة في محيط ما اعتاد عليه وتلقاه من غيره متقوقعًا منغلقًا

(*) كاتب في قضايا التربية والفكر.

عن النقد والتصحيح. وهذا مشهودٌ معلوم، ودلَّت عليه الأدلة الكثيرة المتضافرة، من أظهرها أنَّ العلم رافق خَلقَ الإنسان، فالله سبحانه وتعالى ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وهذا عِلمٌ عظيم، رفع مكانته عاليًا، ولعلَّ ورود قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] بعد ذكر تعليمه لآدم، فيه إشارة لعلوِّ مكانة العلم، قال صاحب التحرير والتنوير: «فإنَّ أمْرَهم بالسجود لآدم ما كان إلا لأجل ظهور مزيَّته عليهم؛ إذ عَلِم ما لم يعلموه»[(١)].

وكان الله يبعث الأنبياء لأقوامهم كلَّما ابتعدوا عن التوحيد، وساد فيهم الجهل، ليعلموهم ويقيموا عليهم الحجة ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، بينما كان موقف أقوامهم المتكرر والمعتاد هو التمسك بما جرت عليه عادتهم وعادة آبائهم، ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] فكان موقف الأنبياء هو موقف التعليم، وكان موقف معانديهم هو التقليد الأعمى.

وهذا ليس ذمًا مطلقًا للتقليد، بقدر ما هو تفضيلٌ بين الصِّفَتين؛ فمن التقليد ما ليس فيه بأس، فيما كان في الحاجات اليومية والصنائع وسائر المباحات؛ «فعملية الاقتداء ليست حالة طارئة قد تحصل وقد لا تحصل، ولكنها كما تقدم غريزة موجودة في نفس كل إنسان»[(٢)]. ومنه ما ليس منه بُد؛ كتقليد العلماء لغير العالم، ومن لا يملك أهلية التعلُّم، أو لا يتفرَّغ له، قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، قال القرطبي: «لم يختلف العلماء أنَّ العامةَ عليها تقليدُ علمائها»[(٣)].

> **للتعلُّم مزية ظاهرةٌ على المحاكاة والتقليد؛ وهي تهيئة الإنسان للخروج عن المألوف من خلال كشف ما فيه من خطأ ومخالفةٍ للقواعد والقوانين والشرائع، بينما تبقيه المحاكاة في محيط ما اعتاد عليه وتلقَّاه من غيره متقوقعًا منغلقًا عن النقد والتصحيح**

كيف تحصل المحاكاة؟

صفة المحاكاة والاقتداء التي جُبل عليها البشر وكانت جزءًا من تكوينهم، لها تأثير عجيب في تشكيل سلوك الناس، وهي تنشأ عادةً بسبب الصعوبة التي ترافق التعلُّم وتحصيل المعرفة، فيحصل نوع من الاسترخاء والاطمئنان إلى محاكاة الآخرين، وعدم التمايز عنهم.

والتقليد يحصل غالبًا بلا وعي، فيكبُر المرء في قومه على عادةٍ من العادات فلا يسأل عنها أحقٌّ هي أم باطل، كما نرى اليوم في اتِّباع كثير من الناس لأنماط معينة من اللباس وقصات الشعر وأساليب الكلام، ولو سألت أحدهم عن سبب فعله ذلك، لأجاب بأنَّ الناس يفعلونه، وربما أجاب بأنَّ هذا هو الدارج في الموضة... وهكذا، وهذا القدر من التقليد في دائرة المباحات مقبول عمومًا، وهو يصنع الملامح التي تميز فئةً من الناس عن غيرها.

خطورة المحاكاة والتقليد دون وعي:

تكمن الخطورة في انتقال المحاكاة والتقليد إلى العقائد والسلوكيات المؤثِّرة على المجتمع وعلى الآخرين دون وعي أو تمحيص؛ إذ لا يجوز للشخص أن يكتفي بما هو منتشر في المجتمع مما يخالف العقيدة والشريعة، بل عليه أن يبحث عن الحقيقة، ويسأل عنها، ويتبنَّى التصوُّر العقدي الذي يُمليه الدليل القاطع والعقل السليم، وألا ينساق في تقليد المجتمع والآباء والأجداد عند كونهم مخطئين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وخطورة المحاكاة والتقليد لا تقف عند أثرها على المُقلِد الذي يحاكي غيره دون وعي، بل أثرُها أخطر على المتبوع الذي يُقلِّده الآخرون، لأنَّه إذا كان منحرفًا في اعتقاده أو سلوكه، ثم قلَّده الآخرون، فإنَّ ذلك يضيف على كاهله أوزارًا إضافية على وزره الشخصي، وقد يتتابع عدَّاد الأوزار إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، ومن ذا الذي يطيق أوزاره حتى يحمل معها غيرها؟!

(١) التحرير والتنوير (٤٢٠/١).
(٢) حياة القائد بين القدوة والاقتداء، د. علي القرني، بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى.
(٣) تفسير القرطبي (٢٧٢/١١).

وقد أشار النبي ﷺ إلى خطورة تعلُّق المقلِّدين بمتبوعهم، فقال: (من سنَّ في الإسلام سنَّة سيئة فعُمِل بها بعده كُتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء)[1]؛ فبيَّن عليه الصلاة والسلام بأنَّ من سنَّ فعلاً قبيحًا ثم اقتدى به الناس وقلَّدوه، فإنَّه يبوء بآثامهم، وهكذا كلُّ سَلَفٍ يتحمَّل ذنب من خلف إذا اتَّبعوهم في باطلهم دون أن ينقص ذلك من آثام الآخِرين، وأمثلته كثيرة، منها عمرو بن لحي الخزاعي الذي بيَّن النبيُّ ﷺ مصيره وسوء عاقبته، فقال: (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه -أمعاءه- في النار، وكان أول من سَيَّبَ السوائب)[2]، ومنها ابن آدم الذي قتل أخاه، قال فيه النبي ﷺ: (لا تُقتل نفسٌ ظُلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل من دمها، وذلك لأنه أولُ من سنَّ القتلَ)[3].

> **خطورة المحاكاة والتقليد لا تقف عند أثرها على المُقلِد، بل أثرُها أخطر على المتبوع الذي يُقلِّده الآخرون، لأنَّه إذا كان منحرفًا في اعتقاده أو سلوكه، ثم قلَّده الآخرون، فإنَّ ذلك يضيف على كاهله أوزارًا إضافية على وزره الشخصي إلى يوم القيامة**

ما هو علاج التقليد المذموم؟

كما تقدَّم في بداية المقالة فالإنسان بين التعلُّم والتقليد، فكلَّما ازداد التعلُّم قلَّ مقدار التقليد، وكلَّما ضمر العلم وتراجع دوره شاع التقليد، وصار قانونًا متبعًا، وكلَّما ازداد التعلُّم قلَّ مقدار التقليد، لكن التعلُّم بابٌ واسع، والمؤثِّر في علاج التقليد منه أمران:

١. إدراك خطر التقليد المذموم:

وهذا يحصل بالإيمان باليوم الآخر، وإدراك أنّ الإنسان مسؤولٌ عن نفسه وفعله، ويُحاسب وحده يوم القيامة ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، قال السعدي: «لا أولاد، ولا مال، ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله ويوفيه حسابه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر»[4]. وهذا يدلُّ على أنَّ فعل الخطأ غير مبرَّر حتى لو كان الناس جميعًا يفعلونه.

وعاقبة التقليد والانسياق الأعمى مبسوطةٌ في نصوص الوحيين في مواضع كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠]، وكذلك الحديث المذكور آنفًا (مَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سَيِّئَةً ...)، وفي حياة البرزخ قال ﷺ: (وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنتُ أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ. ويُضرَب بمطارقَ من حديد ضربةً، فيصيح صيحةً يسمعها مَن يليه غيرَ الثقلين)[5]. ولاحظ كيف كانت الإجابة «لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس» دالَّة على المعنى المقصود، وغيرَ منجيةٍ لصاحبها من الجزاء.

٢. توطين النفس على الاستقلالية والنقد البنَّاء:

وهذا سبيله التربية والتزكية ومجاهدة النفس، فالمؤمن كَيِّسٌ فطِنٌ يقظ البصيرة، يعلم أنه مجازًى على أفعاله؛ فلا يخطو خطوةً إلا وهو يعلم عاقبتها، وهذا المعنى جاء في الأثر فيما يروى عن النبي ﷺ: (لا تكونوا إمَّعَةً، تقولون: إن أحسنَ الناسُ أحسنّا، وإن ظلموا ظلمْنا، ولكن وَطِّنوا أنفسَكم، إن أحسَنَ الناس أن تُحسِنوا، وإن أساؤوا فلا تَظلِموا)[6]، قال ابن عثيمين: «والذي ينبغي للمسلم أيضًا ألا يكون إمَّعَةً يتبع كلَّ ناعق، بل ينبغي أن يُكَوِّن شخصيته بمقتضى شريعة الله تعالى حتى يكون متبوعًا لا تابعًا، وحتى يكون أسوة لا متأسيًا، لأن شريعة الله -والحمد لله- كاملة من جميع الوجوه»[7].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧)، وقال ابن علان في المقصود بـ «سنة سيئة»: معصية، دليل الفالحين (١٣٦/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٢١) ومسلم (٢٨٥٦)، وفي رواية في سيرة ابن هشام (٧٦/١): (إنه كان أول من غير دين إسماعيل). السائبة: نوع من أنواع تحريم الحلال، كانوا إذا ولدت الناقة عشر إناث تباعًا لم يُركب ظهرُها ولم يُجَزَّ وَبَرُها ولم يَشرَب لبنَها إلا وَلدُها أو ضَيف. وتركوها مسيبة لسبيلها وسموها السائبة.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (١٣٧٤).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٣٨).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٠٠٧) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٧) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٣٠١/٢-٣٠٢).

من أهم علاجات التقليد الأعمى: توطين النفس على الاستقلالية والنقد البنّاء، وسبيله التربية والتزكية ومجاهدة النفس، فالمؤمن كَيِّسٌ فطِنٌ يقظ البصيرة، يعلم أنه مجازًى على أفعاله؛ فلا يخطو خطوةً إلا وهو يعلم عاقبتها

لنكسر سلسلة الخطأ:

الانسياق المجتمعي خلف ما هو معتاد دون تمحيصٍ أو تدقيق يُوقع الناس في سلوكيات خاطئة دون وعيٍ منهم، وإذا كانت هذه الأخطاء متوارثةً أو متناقلةً فهي تشكِّل بمجموعها سلسلةً مترابطة من الأخطاء، شخصًا بعد شخص، وجيلاً بعد جيل، وهكذا تستمرُّ الأخطاء وتتولَّد عنها مظاهر من التخلف الحضاري والتفكُّك المجتمعي، حتى تُصبح هذه المظاهر ثغراتٍ يدخل منها الشيطان لإفساد ذات البين، ويتسلَّل منها أعداء الله لهدم الأسرة وتفكيك المجتمع المسلم.

وحتى يكون الحديث مُلامسًا لواقعنا سأضرب أربعة أمثلة لسلوكيات مجتمعية خاطئة مؤثرة، ينبغي مواجهتها وكسر سلسلة الخطأ المتكرر فيها:

١. حرمان المرأة من الميراث:

وهي عادةٌ جاهلية منتشرة، منشؤها الطمع، مع ضعف الوازع الديني، فتُستضعف المرأة ويؤكل حقها الذي فرضه الله تعالى بنصِّ القرآن: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]. قال سعيد بن جبير وقتادة: «كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورِّثون النساءَ ولا الأطفالَ شيئًا»[(١)]، وكانوا يقولون: «لا يُعطى إلا مَن قاتل على ظهور الخيل، وطاعَنَ بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة»[(٢)].

فتجد أنَّ هذه العادة الجاهلية تقع جيلاً بعد جيل في بعض المجتمعات، وقد يستنكرها القوم، ثم إذا آلت إليهم تركة ميِّتهم فعلوا ذات الفعل، متذرِّعين بأنَّ الناسَ يفعلونها، وقد وقفتُ بنفسي على حالات تكون المرأة قد ظُلمت من إخوتها بالتهديد أو بالإحراج أو بالترضية، فتتنازل لهم حتى لا تحدث قطيعة أو مشكلة، ثم إذا دارت الأيام ومات زوجُها تجد المرأة نفسَها تعين أبناءها على حرمان بناتها من الميراث بدعوى أنها تنازلت، وأنهنَّ ينبغي أن يتنازلن كما فعلت، وبأن البنت إذا أخذت نصيبها فسيصل إلى الغريب (زوجها)!!

وهكذا تقوم هذه البنت المحرومة بالضغط على بناتها لاحقًا لحرمانهن من ميراثهن بالدوافع والأسباب نفسها، ولا تسَل بعدها عن تسلُّل حركات تحرير المرأة والدعوات النسوية المشبوهة، وهنَّ يناصرن المرأة المظلومة، فينقلونها من ظلم إلى باطل!

ولا يوقف مثلَ هذه السلسلة والثغرة التي تنتجها إلا وقفةٌ جادَّةٌ تحصل فيها التوعية بالحقِّ وبما شرع الله لهنَّ، والتزام حدود الله، والشجاعة من الرجال قبل النساء في مقاومة أهل الجشع، والوقوف في وجههم بالعلم وبالرأي والحزم.

الانسياق خلف المعتاد دون تمحيصٍ أو تدقيق يُوقع الناس في سلوكيات خاطئة دون وعيٍ منهم، وإذا كانت هذه الأخطاء متوارثةً أو متناقلةً فهي تشكِّل بمجموعها سلسلةً مترابطة من الأخطاء، وتتولَّد عنها مظاهر من التخلف الحضاري والتفكُّك المجتمعي

٢. القسوة في تربية الأبناء:

مرَّت على الأمة أحوال تراجع فيها العلم، وفقد الناس الاتِّصال بالقُدوات، وتضاءل الاستهداء بأنوار الهدي النبوي في التربية، فصار كثيرٌ من الآباء والأمَّهات يعاملون أولادهم بالقسوة والضرب المبرِّح، فيكسرون نفوسهم ويُذلونها، ويغيب عنهم الهدي النبوي الذي روته أم المؤمنين عائشة ﵂: (ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده، ولا امرأةً ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله)[(٣)]، وحديث أنس ﵁: (لقد خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قطُّ: أفٍّ، ولا قال لشيء فعلتُه: لمَ فعلتَه؟ ولا لشيءٍ لم أفعله: ألا فعلتَ كذا؟)[(٤)]، فتأمَّل معي:

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢١٩).
(٢) تفسير القرطبي (٥/٤٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٢٨).
(٤) أخرجه البخاري (٦٠٣٨) ومسلم (٢٣٠٩).

علاج التقليد المذموم

إدراك خطر التقليد المذموم	توطين النفس على الاستقلالية والنقد البنَّاء
1. الإيمان باليوم الآخر 2. إدراك أنَّ الإنسان مسؤولٌ عن نفسه وفعله 3. وأنه يُحاسب وحده يوم القيامة	1. التربية والتزكية ومجاهدة النفس 2. التزام اتباع شرع الله في كل صغيرة وكبيرة 3. تمثل الأسوة الحسنة للآخرين

كم هي ثمينةٌ في عين رسول الله ﷺ كرامةُ من حولَه من الأبناء والزوجات والصبيان والخَدَم، وكم هي رخيصةٌ في عين أولئك الذين استمرؤوا الضرب المبرِّح الذي لا يعرفون غيره سبيلاً للتربية والتفاهم!! والأب الذي يسيء تربية أولاده، وكان قدوة سيئة لهم، واقتدوا به في سلوكياته المنحرفة، يتحمَّل وزر أولاده، لأنه هو السبب في انحرافهم.

فينشأ الأولاد -مرغمين- على تقبُّل هذا النمط من التنشئة؛ لضعفهم في صغرهم، ولأنَّ غالب الآباء يفعل هذا في زمان ومكان معين، فإذا صاروا في موقفٍ مماثلٍ -آباءً أو أمهاتٍ- لم يجدوا سبيلاً غير ما نشؤوا عليه من الضرب والقسوة، فينتقل النموذج إلى الجيل التالي، وهكذا إلى الذي يليه، ثم يجد قُرناء السوء سبيلاً إلى نفس هذا الولد الذي يضربه أبواه فيأخذونه بالكلام المعسول، وبفسحة الصداقة فيفسدونه بما لديهم من انحراف وفسوق.

ولا يوقف مثل هذه السلسلة إلا تعلُّم الهدي النبوي في التربية، وحملُ النفس على مخالفة الخطأ المتجذِّر في النفس، والسير عكس المألوف في هدى وبصيرة ونور.

كم هي ثمينةٌ في عين رسول الله ﷺ كرامةُ من حولَه من الأبناء والزوجات والصبيان والخَدَم، وكم هي رخيصةٌ في عين أولئك الذين استمرؤوا الضرب المبرِّح الذي لا يعرفون غيره سبيلاً للتربية والتفاهم!!

٣. مكائد الحماة والكنة:

الحرب بين الحماة والكنة[١] من السلوكيات الشائعة بين النساء، وفيها من القصص والمماحكات ما لا يخلو منه بيتٌ من البيوت، والدافع الأساسي في هذه المكائد هو التنافس على الاستئثار بالرجل! فهذه تراهُ ابنَها الذي كانت سبب مجيئه للدنيا، وسهرت عليه ورعتهُ حتى كبر، فتأتي تلك الغريبة لتحصل عليه جاهزًا، وهذه تراه زوجَها وعمودَ بيتها وشريكَ حياتها وفتى أحلامها، وأنَّ أمه قد قامت بدورها الطبيعي، وآن الأوان لأنْ تتخلَّى عنه ليتفرَّغ لزوجته وأولاده ومستقبله.

لكن الأمر له مضاعفاتٌ لا تُحتمل، فتجد الحماة متأهِّبةً مستعدّةً للفتك بالكنة الدخيلة،

(١) الحماة أم الزوج، والكنة زوجة الابن.

فتعاملها كالخادمة وتُهينها، وتطلب من ابنها ما لم تكن تطلبه منه قبل زواجه، وقد تطالبه بمالٍ لا تحتاجه، وتلوِّح لها بتطليقها في كل مناسبة، وربما بتزويجه من أخرى، وتُعينها على ذلك بناتُها، حتى إذا تراخت في أذى الكنة والتضييق عليها، جاءت صويحباتها محرِّضات، ولم يُقصِّرن في اقتراح ما ينغِّص حياة ابنها قبل كنتها.

والكنة بالمقابل لن تقصر بالإيماء واللمز والتأفُّف وبرفع الصوت والحديث بنبرة خالية من الاحترام، ونقل معاناتها لزوجها مع المبالغة والتهويل فتُغيِّره على أمه، وقد تُحرجه بكثرة الاتصال إذا زارها، أو تمنعه من الإنفاق عليها، أو تُضيِّق على أبويه إذا زارا ابنهما في بيته، وهي كذلك معها حزبُها من أهلها وصويحباتها اللاتي يقترحن عليها ما تكيد به حماتها.

ويجدر التنبيه هنا أننا لا نقصد التعميم، فهناك حموات فاضلات لا يُسئن لكنّاتهن ويعتبرنهن بناتهن وإن كنَّ مسيئات، وهناك كناتٌ فاضلاتٌ يصبرن على ما يُصيبهنَّ من أهل الزوج من أذى.

وهناك ممارساتٌ في هذا المجال يضيق المقام عن وصفها، والملفت هنا أنَّ الكنة التي تعرضت لظلم حماتها تمارس نفس الفصول على كنَّتها في مستقبل الأيام، فتُذيقها ما تُمليها عليها خبرتها، وتلك الكنة مصيرُها أن تكون حماة غيرها، وهكذا في سلسلة متشعبة مرهقةٍ مستهلكةٍ للأوقات والطاقات في المجتمع.

ولا يسعدُ في بيئات المشكلات المتراكبة إلا الشيطان الذي يحترف التحريش بين المسلمين، ويبعث سراياه لإفساد بيوتهم، فيسعَون في قطع رحم هذه، وتطليق تلك، (فأدناهُم منه منزلةً أعظمهم فتنةً، يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئًا. قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركتُه حتى فرّقتُ بينه وبين امرأتِه. قال: فيُدنيه منهُ ويقول: نَعم أنتَ)[1].

ولا يوقف هذه السلسلة إلا تمثُّل سنَّة النبي ﷺ: (لا يؤمنُ أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه)[2]، ومعرفةُ خطر هذه المشاقة والمعاملة السيئة، قال ﷺ: (مَن ضارَّ أَضَرَّ اللهُ بِهِ، ومَن شاقَّ شَقَّ اللهُ عليه)[3]، وأن تجرب النساء التوقُّف عن هذه الحالة المجهدة لجميع الأطراف، كل من طرفها، يساعدهن في ذلك الرجال الصالحون.

٤. مبالغات الزواجات:

الزواج قانون إلهي، وضعه الله لتتحقَّق به عمارة الأرض وتناسل البشر، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، وهو سنة نبوية حثَّ عليها النبي ﷺ، فقال: (تزوَّجوا الوَدود الوَلود فإنِّي مُكاثرٌ بكم الأُمم)[4] ووجَّهَ شبابَ المسلمين توجيهات كثيرةً للمبادرة للزواج وعدم التأخُّر عنه بلا عذر، وحضَّ على اختيار الزوجة الصالحة، وعلم أصحابه كيفية التقدُّم للخطبة، وما الذي يُصلح البيوت ويُقيمها ويجعلها تزدهر ويملؤها الودُّ والتفاهم، وقدَّم بنفسه الأسوة الحسنة التي تحقق السعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة.

لكن الوضع يختلف كلَّما ابتعد الناس عن معين النبوة الصافي، فينسى الناس أهداف الزواج ومقاصده السامية في تحقيق سنّة النبي ﷺ، وإكثار تعداد من يوحِّد الله تعالى، وإعفاف الشباب والفتيات، وتوجيه طاقاتهم نحو عمارة الأرض والبناء الحضاري، ويتحول الزواج إلى ميدان للمباهاة والتسابق.

ويُصبح المهر قدرًا باهظًا من المال لا يستطيع أوساط الشباب جمعه في عشر سنوات أو أكثر ضمن ظروفهم العادية، وفوق المهر شروطٌ تعجيزية من الطلبات المرهقة كالصالة الفاخرة، والهدايا الثمينة، والرحلات والفنادق، ومع موجة الهجرة صارت بعض الشروط تصل لرحلة استقدام أهل الزوجة لبلدان المهجر، وحدث ولا حرج عن أصناف الطلبات والاقتراحات التي لا تخطر على بال الشابّ الذي يحلُم بتأسيس بيتٍ يستقرُّ فيه ضمن إمكاناته وظروفه.

والأمر يزداد خطورةً إذا كان بين هذه الطلبات والشروط ما حرَّمه الله تعالى، مثل اختلاط الرجال بالنساء، والتساهل في إظهار ما لا يرضيه من الأجساد والزينة، ومحرَّمات المآكل والمشارب، مما لا يخفى خطره وأثره.

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٣).
(٢) أخرجه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).
(٣) أخرجه أبو داود (٣٦٣٥) والترمذي (١٩٤٠) وابن ماجه (٢٣٤٢).
(٤) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠).

والجانب الذي يُهمُّنا في هذه العادات هو حصول العدوى بها؛ فكيف يكون زواج ابنة العائلة الفلانية أقل مبالغةً من زواج العائلة تلك؟! وإذا لم يحصل تشعر البنت أو أهلها بالغيرة والنقص، وقد يرفضون الزواج لاعتذار الخاطب عن هذه الشروط أو بعضها مما لا يطيقه ولا يقدر عليه.

ومما يثير الاستغراب أنَّ العائلة نفسها إذا أرادت تزويج ابنها استحضرت مسألة تيسير الزواج وتخفيف الشروط، وطالبت به غيرها، وإذا خُطبت ابنتهم نسوا ذلك كلّه، وأعدُّوا قوائم شروطهم وطلباتهم كأنَّ ابنتهم هي الفرصة الوحيدة في العالم للشاب المتقدِّم.

وهكذا تستمرُّ المباهاة والعناية بالمظاهر، وتصويرها ونشرها، وتداولها على الشبكات الاجتماعية حتى تصبح عادةً متبعة وسنة جارية وسلسلة متتابعة، فيقتدي بها هؤلاء وأولئك، ويفعلون مثلهم غيرةً وتقليدًا بلا وعي ولا تعقُّل، والعاقل يرى ويبصر كم صدّت هذه المظاهر عن الزواج، وحوَّلته من معناه السامي إلى سباق في التكثُّر من حطام لا يستفيد الزوجان منه إلا القيل والقال، بل كانت في كثير من الأحيان سببًا في ضيق الحال وكثرة الديون، وعاملاً من عوامل الطلاق وانهيار البيوت.

ولا يوقف هذه السلسلة إلا وقفةٌ صادقةٌ من أولياء الأمور والمصلحين والمربِّين لإيقاف هذه المهازل، وذلك بإيقاظ الناس من انسياقهم وغفلتهم، وبيان خطر هذه التصرفات على المجتمع، فقد حذَّر النبي ﷺ من مغبة هذه الأمور، فقال: (إذا خطب إليكم مَن تَرضَون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكُنْ فتنةٌ في الأرض، وفسادٌ عريضٌ)[1].

قال القاري رحمه الله: «لأنَّكم إن لم تزوجوها إلا من ذي مال أو جاه، ربَّما يبقى أكثرُ نسائكم بلا أزواج، وأكثرُ رجالكم بلا نساء، فيكثر الافتتان بالزنا، وربما يلحق الأولياء عار، فتهيج الفتن والفساد، ويترتَّب عليه قطع النسب، وقلة الصلاح والعفة»[2]، والواقع يشهد والإحصاءات تنطق أنَّ هذه المبالغات تتناسب طردًا مع نسب الطلاق في المجتمع.

المحاكاةُ العمياء هي السببُ في تدهور الأحوال الدينية والاجتماعية في سالف الأمم؛ فهي السبب في نشوء الشرك في قوم نوح، والشذوذ في قوم لوط، وتطفيف الموازين في قوم شعيب، ووأد البنات في العرب قبل البعثة، وغيرها؛ لذا جاء تحذير النبي ﷺ منها واضحًا جليًا

أنت المسؤول:

الانسياقُ خلف المعتاد والجاري من العادات والسلوكيات الخاطئة لا يليق بالمسلم، ولا يصنع نهضةً ولا حضارة. والمحاكاةُ العمياء هي السببُ في تدهور الأحوال الدينية والاجتماعية في سالف الأمم؛ فهي السبب في نشوء الشرك في قوم نوح، وانتشار الشذوذ في قوم لوط، وتطفيف الموازين في قوم شعيب، ووأد البنات في العرب قبل البعثة، وغيرها؛ لذا جاء التحذير واضحًا من النبي ﷺ من اتباع هذا المنهج بقوله: (لتَتَّبعنَّ سَنَنَ من قبلكم شِبرًا بشِبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سَلَكُوا جُحْر ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ؛ قلنا: يا رسول الله؛ اليهودُ والنصارى؟ فقال ﷺ: فَمَن؟!)[3].

وإذا أردنا الاسترسال في سرد الأمثلة فلن يتَّسع المقام، وفيما ذُكر منها إشاراتٌ واضحةٌ للسلوك المقصود الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، متعلِّمًا واعيًا مُدركًا لخطورة ما يفعله في نفسه وعلى أبنائه ومن بعدهم، لا ينساق مع الناس في الخطأ والباطل والإساءة، بل يتعلَّم ويستمر في السؤال والتبصُّر، ويختار لنفسه ما يحبُّ أن يجده في صحائف أعماله من الأفعال والأخلاق والخصال.

ومثل هذا الوعي هو ما نحتاجه للنهوض الحضاري المنشود بواقعنا ومجتمعنا، فتصبح الأمة شيئًا فشيئًا أمة واعية متعلمة، لا تقبل بالخطأ ولا تجاريه ولا تسكُتُ عنه، بل تقف بوجهه وتصحِّحُه وتدفعه حتى تنكسر سلسلة الخطأ.

(١) أخرجه الترمذي (١٠٨٤).
(٢) مرقاة المفاتيح (٢٠٤٧/٥).
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩).

أثر الكلمة الطيبة

أ. خالد عبد الحميد أحمد (*)

يحاسَب الإنسان على كسبه يوم القيامة في صحائف أعماله، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، ومن أهم ما يكسبه الكلام الذي يمثل حصاد اللسان، وهو ينقسم إلى كلام طيب وآخر خبيث، والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، فما هي صفات الكلمة الطيبة؟ وأين نجد تطبيقاتها؟ وما هو أثرها؟

مدخل:

الكلمة جزء من عمل الانسان الذي يملأ به ميزانه ويحاسب عليه إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وفي حديث معاذ المشهور قول النبي ﷺ له في ختام وصيته: (ألا أخبرك بِملاكِ ذلك كله؟ قلت: بلى يا نبي الله. فأخذ بلسانه قال: كُفَّ عليك هذا). فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: (ثَكِلَتْكَ أمُّك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوهِهم -أو على مَناخِرهم- إلا حصائدُ ألسنتِهم)[1].

ولِما للكلمة من أهمية في حياة الفرد والمجتمع؛ فقد أولتها النصوص الشرعية أهمية كبرى، وحرصت تعاليم ديننا الحنيف على أن ينظر المؤمن ويفكّر في كل كلمة ينطق بها ولا يستهين بشيء من ذلك، وخير الكلام ما كان طيبًا نافعًا يرضي الله تعالى، وفي هذه المقالة بيان شيء من ذلك.

ما المقصود بالكلمة الطيبة؟

الكلمة الطيبة هي ما وافق الشرع من ألفاظ وأساليب، خفيفة العبارات، مهذبة المعاني، تَسُرُّ السامعين، وتؤثر فيهم، تشتاق إليها النفوس، وتؤلف القلوب، تفتح أبواب الخير، وتغلق أبواب الشر، وتترك أثرًا صالحًا في كل وقت، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

(*) داعية، مهتم بقضايا الشباب، مؤسس مركز الاستقامة الدعوي في إسطنبول.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦).

الكلمة الطيبة عمل صالح:

أول آثار الكلمة الطيبة على المتكلم نفسه؛ إذ يحصل بها على الأجر والرضوان من الله تعالى، ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا، يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم)[1].

وهي سبب لقبول الأعمال قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وهي من أعمال البر والصدقة، قال رسول الله ﷺ: (والكلمة الطَّيبة صدقة)[2].

وسبب للوقاية من النيران، قال ﷺ: (اتَّقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة)[3]، وغير ذلك من الآثار العظيمة، من كمال الخُلق، والانتصار على الهوى والشيطان، قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

> **الكلمة حروفٌ، لكنَّها تصنع العجائب، فمِن كمال العقل وحسن الإيمان أن ينتبه المؤمن إلى الكلمة، ويوليها اهتمامًا، فكلمةٌ تُدخل الإنسان في دين الله وتحقِّق له السَّعادة، وكلمةٌ تُخرجه من الدِّين وتُشقيه، وكلمةٌ تبني أسرةً وأخرى تهدمها**

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت:

الكلمة حروفٌ، لكنَّها تصنع العجائب، فمِن العقل والمنطق والإيمان والوعي واليقظة أن ينتبه المؤمن إلى الكلمة، ويوليها اهتمامًا، فكلمةٌ تُدخل الإنسان في دين الله وتحقِّق له السَّعادة، وكلمةٌ تُخرجه من الدِّين وتُشقيه، وكلمةٌ تبني أسرةً (فإنَّكم أخذتُموهنَّ بأمان الله، واستَحلَلتُم فُروجهنَّ بكلمة الله)[4]، وكلمةٌ من أربعة أحرف تهدم أسرةً (طالق)، وكلمةٌ تُصلح ما فسد بين متشاحنين، وكلمةٌ تُفسد بين مجتمعاتٍ كالنميمة، وقد تُوصل إلى سفك دماءٍ وقتلٍ وتشريدٍ، وكلمةٌ حانيةٌ تزرع الطُّمأنينة والسَّكينة والهدوء في مجتمعٍ، وكلمةٌ تُحبط أعمالًا صالحةً قد تكون كأمثال الجبال، وكلمةٌ يرجح بها ميزان العبد يوم القيامة؛ فينجو، وكلمةٌ تنقل عاصيًا منحرفًا عن جادَّة الصَّواب إلى الحقِّ والهُدى، وكلمةٌ تَنفِّره وتحوِّله إلى الزَّيغ والبُعد عن الخير.

فما أعظم خيرَها! وما أعظم خطرها! فلنقف معها قليلًا، نذكِّر بعضنا بالمسؤوليَّة تجاهها، ولا بدَّ مِن القول أنَّ الجدِّيَّة المنتظرة في المسلم السَّاعي إلى مرضاة ربِّه تستلزم منه أن يدقِّق في كلِّ كلمةٍ تخرج من فيه، إذ كما قيل: أنت في خيرٍ ماسكتَّ، فإن تكلَّمتَ فلك أو عليك.

ولنتذكّر بعض النُّصوص التي تزيد المؤمن إيمانًا، وتقوّي إرادة المؤمن الجادّ بسعيه لمرضاة الله والفوز بجنَّته، فيحافظ كل مِنّا على كلمته، ويسعى لينزلها منزلها.

الكلمة الطيبة مفتاح القلوب:

ما أحوجنا إلى الكلمة الطيبة.. ما أحوجنا إلى الكلمة الطيبة مع الوالدين، وقد حضَّنا ربُّنا جل جلاله عليها، وعدها جزءًا مِن برِّهما، فقال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

ما أحوجنا إليها مع الأهل، ورسولنا المعلِّم الرحيم علمنا فقال: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)[5].

وحين سأله أحد أصحابه: ما حقُّ زوجِ أحدِنا عليه؟ قال: (تُطعمها إذا أكلتَ، وتَكسوَها إذا اكتسيتَ، ولا تَضرب الوجه ولا تُقبِّح، ولا تهجر إلا في البيت)[6]، ما أحوجنا إلى هذه الكلمة «لاَ تُقَبِّحْ» أي: لا تُسمعهم كلمةً فيها القُبح والسُّوء، أي: ليكن شعارك الكلمة الطيبة.

ما أحوجنا إلى الكلمة الطيبة مع الأرحام، وأن يكون منهجنا منهج القرآن، إذ يقول ربنا عز وجل:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٨).
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٨٩) ومسلم (١٠٠٩).
(٣) أخرجه البخاري (٦٠٢٣) ومسلم (١٠١٦).
(٤) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٥) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥).
(٦) أخرجه أحمد (٢٠٠١١).

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦].

ما أحوجنا إلى الكلمة الطيبة في معاملاتنا وأسواقنا، ورسولنا ﷺ يعلِّمنا فيقول: (رَحم الله رجلاً، سَمحًا إذا باعَ، وإذا اشترى، وإذا اقتَضَى)[١].

ما أحوجنا إليها في دعوتنا، ونحن جميعًا مطالبون بالدعوة إلى الله، وهنا أخصُّ بالذِّكر المسلم الملتزم، إذ وفَّقه الله تعالى وهداه لأقوم السُّبل أن ينقل هذا الخير إلى الناس بالكلمة الطيبة: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

نعم.. الكلمة الطيبة والبسمة الصَّادقة مفتاحٌ نملِك به القلوب، بل هي جزء من نعيم الجنة، ألم نقرأ في كتاب الله تعالى في بعض أوصاف الجنة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥] وقوله سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥]، فمَن كان عديم البضاعة منهما فليس له حظٌّ في حبِّ الناس أو التأثير فيهم، قال الله لصفوته من خلقه وخاتم أنبيائه ورسله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، الناس قد يسمعون مِن أيِّ خطيب، وقد يتأثَّرون ببعض كلامه؛ احترامًا لأمر الله، لكنَّ الله سبحانه يجعل في قلوب الناس حبَّ المرء المبتسم الوجه، الطيب الكلام، السهل في غير ذِلَّةٍ، والألوف في غير تزلُّفٍ.

وهذه مواصفاتٌ يجعلها الله فيمن يشاء مِن عباده، ليكونوا دعاةً إلى الله، وشهداء على الناس. والمتتبِّع لهدي الحبيب وسيرته العطرة صلوات ربِّي وسلامه عليه لا بدَّ أن يكون آلفًا مألوفًا، الكلمة الطيبة شعاره في دعوته، لأنَّه منهجه، وهو ﷺ من ارتضاه ربُّنا أن يكون الأسوة والقدوة الحسنة.

> **مَن كان عديم البضاعة من طلاقة الوجه والكلمة الطيبة فليس له حظٌّ في حبِّ الناس أو التأثير فيهم، والله سبحانه يجعل في قلوب الناس حبَّ المرء مبتسم الوجه، طيب الكلام، السهل في غير ذِلَّةٍ، والألوف في غير تزلُّف**

الكلمة الطيبة رحمة:

ما أحوجنا إلى الكلمة الطيبة مع المذنبين المخطِئين، (إنَّ الرِّفق لا يكون في شيءٍ إلا زَانَه، ولا يُنزَع من شيء إلا شَانَه)[٢]، هكذا قال المعلِّم الرحيم ﷺ، لقد وسِع بكلمته الطيبة وقلبه الرحيم كلَّ مَن أخطأ، فعندما أُتي بالرَّجل الذي شرب الخمر فقال رجلٌ مِن القوم: اللهم الْعَنْهُ، ما أكثرَ ما يُؤْتَى بِهِ؟ فقال النبي ﷺ: (لا تَلعنُوه؛ فوالله ما عَلمتُ إلا أنه يُحبُّ اللهَ ورسوله)[٣]، وحين غضب أصحابه ممَّن جاء يستأذن في الزِّنا؛ عالج مشكلته بكلماتٍ طيِّباتٍ ولمسةٍ حانيةٍ، فقام ذلك الرَّجل والزِّنا أبغض شيءٍ إلى قلبه[٤]. وقال لأهل مكَّة بعد الفتح: (مَن أَغلَقَ عليه بابَهُ فهو آمِنٌ، ومَن دخلَ المسجد فهو آمِنٌ، ومَن دخل دارَ أبي سُفيانَ فهو آمِنٌ)[٥]، هذه الكلمة الطيبة صنعت الأعاجيب، وجعلت الناس يدخلون في دِين الله أفواجًا.

كلمات طيبة غزت قلوبًا وحولت أصحابها إلى علماء فضلاء نفع الله بهم الأمة، قال ﷺ في عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: (نِعْمَ الرجلُ عبدُ الله لو كان يُصلي من الليل)، فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً[٦].

وقال الإمام محمد بن إسماعيل البخاري: «كنتُ عند إسحاق بن راهويه، فقال لنا بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابًا مختصرًا لسنن النبي ﷺ، فوقع ذلك في قلبي، فأخذتُ في جَمع هذا الكتاب؛ يعني: كتاب الجامع[٧]، وقال الإمام الذَّهبي عن شيخه علَم الدين البرزالي: «وكان هو [أي: علم الدين البرزالي] الذي حبَّب إليَّ طلَبَ الحديث؛ فإنَّه رأى خطِّي

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٦).
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).
(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).
(٤) ينظر: مسند أحمد (٢٢٢١١).
(٥) أخرجه مسلم (١٧٨٠).
(٦) أخرجه البخاري (١١٢١) ومسلم (٢٤٧٩).
(٧) تاريخ بغداد (٣٢٦/٢).

فقال: خطك يشبه خطَّ المحدِّثين، فأثَّر قوله فيَّ، وسمعتُ»[١]، ومثل هذا كثير في تاريخ الأمة كلمات حوّلت أشخاصًا من حال إلى حال صاروا سادة وقادة للأمة.

كم سمعنا عن الدعاة الربانيين كيف كان حُنوُّهم وعطفهم على المذنبين والعصاة، لقد جاء تاريخهم يشهد لهم على الوراثة المحمدية التي امتلكوها، فإذا جاءهم المذنب والمخطئ ومَن زلَّت قدمه؛ فيجد الأب الرحيم والشَّفوق الحليم والكلمة الطيبة التي تشفي جراحه، وتحوّله إلى مصافِّ المقربين من العباد إلى الله، كانوا كما كان أسلافهم، وكما كان حبيبهم المصطفى ﷺ، وكما استقوا من معين القرآن، إذ يقول الله تعالى لأنبيائه في دعوتهم لفرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

قال إبراهيم الأطروس: «كنا قعودًا ببغداد مع معروف الكرخيِّ على الدجلة، إذ مرَّ بنا قوم أحداث في زورق يضربون بالدُّفِّ ويشربون ويلعبون، فقلنا لمعروف: أما تراهم كيف يعصون الله تعالى مجاهرين، ادعُ الله تعالى عليهم، فرفع يده وقال: إلهي كما فرَّحتهم في الدنيا ففرِّحهم في الآخرة، فقالوا: إنما سألناك أن تدعو عليهم، فقال: إذا فرَّحهم في الآخرة تاب عليهم»[٢].

هذه إرثٌ نبوي ففي الحديث الشريف قال أبو هريرة رضي الله عنه: قدِم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن دَوسًا عصت وأبت، فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس، قال ﷺ: (اللهم اهْدِ دَوسًا وأْتِ بهم)[٣].

هذا أثر الكلمة الطيبة، وهذه الدعوة الصادقة، ما أحوج المؤمن الواعي والداعية المخلص مع إخلاصه إلى أن يجنِّب لسانه كلَّ خبثٍ، وأن يكون في تعامله مع جميع الناس منطلِقًا فيه مِن قول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقول المصطفى ﷺ: (الكلمةُ الطيبةُ صدقة)[٤].

الكلمة الطيبة دليل على استجابة المؤمن لهدي الله تعالى واتباع سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه والسعي للفوز في الآخرة بجنة الله تعالى

وفي الختام:

لابد من التذكير بأن الكلمة الطيبة دليل استجابة المؤمن لهدي الله تعالى، واتباع سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه، والسعي للفوز بدخول جنة الله تعالى؛ إذ قد يكون سبب دخولك الجنة كلمة طيبة نفعت وهدت وصنعت تاريخًا، وبالمقابل فقد يكون دخول النار - والعياذ بالله - بكلمة سيئة تضر وتهدم؛ ففي حديث معاذ المشهور قول النبي ﷺ له في ختام وصيته: (ألا أخبرك بِملاكِ ذلك كله؟) قلت: بلى يا نبي الله. فأخذ بلسانه قال: (كُفَّ عليك هذا). فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: (ثَكِلَتْكَ أُمُّك يا معاذ، وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوهِهم -أو على مَناخِرهم- إلا حصائدُ ألسنتِهم)[٥].

نسال الله التوفيق والهداية وأن يحفظنا ويحفظ ألسنتنا من كل سوء وأن يجعلنا من أهل الكلمة الطيبة النافعة.

(١) الدرر الكامنة، لابن حجر (٢٧٨/٤).
(٢) الرسالة القُشيريَّة (٢٦٥/١).
(٣) أخرجه البخاري (٢٩٣٧).
(٤) أخرجه البخاري (٢٩٨٩).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٦١٦).

تأصيل

فقه الواقع وأثره في الفتوى

أ. زكرياء غازيوي (*)

لم يجعل الله تعالى الأنبياء ملائكة، بل بشراً يوحى إليهم، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويتزوجون وينجبون، حتى تكون حياتهم مشابهة لحياة الناس، قريبين منهم، يعايشونهم ويفهمون أحوالهم، ويرشدوهم إلى تطبيق الدين في واقعهم، وينبغي لأهل العلم أن يكونوا كذلك على قدر كافٍ من القرب من الناس ومعايشتهم وفهم واقعهم، حتى تتحقق فيهم صفة القدوة ويكونوا أقدر على الإرشاد

مدخل:

غير خافٍ أنَّ عصرنا الراهن يشهد تطورًا ملحوظًا في جميع الجوانب العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها؛ مما يحتم على المجتهد معرفةَ الحكم الشرعي في النوازل المستجدة، ولا يتأتّى له ذلك إلا من خلال فقه الواقع فقهًا صحيحًا.

ولفقه الواقع أثر فَعّال في توجيه المجتمع الإسلامي توجيهًا سليمًا، وربطه بأحكام الشريعة الإسلامية، التي تعصمه من الانحراف والزلل، وتقيه خطر الانزلاق، والمروق عن الدين والخطل. لذلك كان لزامًا على المجتهد المستنبط للحكم الشرعي معرفةُ الواقع معرفةً صحيحةً، ومواكبتُه من جميع حيثياته؛ لأنه يُعين على استخراج الحكم الشرعي، وتنزيله على الوقائع المستجدَّة التي لا يوجد نصٌّ صريحٌ فيها.

فما مدى أهمية فقه الواقع، وما أبرز الأمور المعينة على فهمه؟ هذا ما تناقشه هذه المقالة بحول الله انطلاقًا مما يلي:

المقصود بفقه الواقع:

تعددت عبارات أهل العلم في تعريف فقه الواقع، ومنها:

أ. «فهم النوازل والمتغيرات ودراستها دراسة مستفيضة والاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية لها عبر منهج فقهي يجمع بين العلم بالشرع ومقاصده والمعرفة بالواقع ومستجداته»[1].

(*) أستاذ وباحث في العلوم الشرعية.

(1) مقال حول فقه الواقع، د. عصام البشير.

ب. كما أشير إلى أنه فقه: «واقعي مبني على دراسة الواقع المعيش دراسة دقيقة مستوعبة لكل جوانب الموضوع معتمدة على أصح المعلومات وأدق البيانات والإحصائيات»[١].

ومن هذا يتضح أن فقه الواقع له جانبان:

» معرفة واقع المستفتي وحاله، فلا يُفتى لشخص حتى يكون عند المفتي تصور لحال المستفتي وعلمٌ بواقعه.

» معرفة واقع المجتمع وما فيه من أحداث ومستجدات وأمور مؤثرة على الفتوى.

إنَّ التعمُّق في دراسة الواقع وفهمه ومعرفته معرفةً تامّةً يثمر نضجًا في فهم الدين؛ ذلك أن تنزيل حكم شرعيٍّ على واقعةٍ ما، لا يُمكن إلا بفهم ملابسات وظروف هذا الواقع

أهمية فقه الواقع:

أكّد ابنُ القيم رحمه الله على ضرورة فقه الواقع تنبيهًا على أهميته ومكانته، حيث قال: «ولا يتمكَّن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علمًا، والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر؛ فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجرًا..»[٢].

إنَّ التعمُّق في دراسة الواقع وفهمه ومعرفته معرفةً تامّةً يثمر نضجًا في فهم الدين؛ ذلك أن تنزيل حكم شرعيٍّ على واقعةٍ ما، لا يُمكن إلا بفهم ملابسات وظروف هذا الواقع. وإذا كان الأمر كذلك فإنه تزداد أهمية فقه الواقع في استنباط الحكم الشرعي الذي يحتاجه كلُّ مُكلَّف، قال الخطيب البغدادي: «إنَّ الفقيه يحتاج أن يتعلَّق بطرفٍ من معرفة كلِّ شيءٍ من أمور الدنيا والآخرة، وإلى معرفة الجِدِّ والهزل، والنفع والضر، وأمور الناس الجارية بينهم، والعادات المعروفة منهم»[٣].كما أن فقه الواقع والإحاطة به يعين على ضبط الفتوى في النوازل والمستجدات، وإخضاعها للأحكام الشرعية.

ويتعلَّق فقه الواقع بمسألةٍ مهمّة ذات بعدٍ عقدي، وهي صلاحية الشريعة للتطبيق في كل زمان ومكان، وهذا مقتضى شمولها وكمالها، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، قال سيد قطب: «فأعلن لهم إكمال العقيدة، وإكمال الشريعة معًا، فهذا هو الدين.. ولم يعد للمؤمن أن يتصور أنَّ بهذا الدين – بمعناه هذا – نقصًا يستدعي الإكمال، ولا قصورًا يستدعي الإضافة، ولا محلية أو زمانية تستدعي التطوير أو التحوير.. وإلا فما هو بمؤمن، وما هو بمقر بصدق الله، وما هو بمرتض ما ارتضاه الله للمؤمنين، إنَّ شريعة ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن هي شريعة كل زمان، لأنها -بشهادة الله- شريعة الدين الذي جاء «للإنسان» في كل زمان وفي كل مكان، لا لجماعة من بني الإنسان، في جيل من الأجيال في مكان من الأمكنة، كما كانت تجيء الرسل والرسالات، الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي، والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان، دون أن تخرج عليه، إلا أن تخرج من إطار الإيمان، والله الذي خلق الإنسان ويعلم من خلق، هو الذي رضي له هذا الدين، المحتوي على هذه الشريعة، فلا يقول: إن شريعة الأمس ليست شريعة اليوم إلا رجل يزعم لنفسه أنه أعلم من الله بحاجات الإنسان وبأطوار الإنسان»[٤].

يتعلَّق فقه الواقع بمسألةٍ مهمّة ذات بعدٍ عقدي، وهي صلاحية الشريعة للتطبيق في كل زمان ومكان، وهذا مقتضى شمولها وكمالها

(١) أولوية الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، د. يوسف القرضاوي، ص (٣٠).
(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم (٦٩/١).
(٣) الفقيه والمتفقه (٣٣٤/٢).
(٤) في ظلال القرآن (٨٤٣/٢).

المعرفة المطلوبة بفقه الواقع:

تنقسم المعرفة بالواقع بالنظر إلى المستفيد من الفتوى إلى مستويين:

* **الفتاوى ذات الطابع الخاص:** وقد تكون الخصوصية هنا فرديةً، أو تخصُّ تجمعًا معينًا أو مؤسسة، أو جماعة من الناس تجمع بينهم الصفة التي يدور حولها فتوى المفتي أو حكم القاضي، وهنا ينبغي للمتصدِّر لتقديم الرأي الفقهي أو الفتوى أن يُلِمَّ بواقع المستفيد وأحواله والجوانب المؤثرة فيه، والفروق بينه وبين غيره، بما يتمُّ به المقصود كالسؤال والاستشارة والتحري، فقد أفتى ابن عباس عندما سأله رجلٌ عن توبة القاتل بقوله: «لا توبة له»، وسأله آخر، فقال: «له توبة»، فلما استفسر منه جلساؤه، قال: «أما الأول فرأيت في عينيه العزم على القتل. وأما الثاني فجاء نادمًا بعد أن قتل، فلم أُقنِّطه من رحمة الله»[١].

* **الفتاوى ذات الطابع العام:** وهي الفتاوى التي تتضمَّن الإجابة عن النوازل المستجدَّة التي يعمُّ أثرها عامة الأمة أو معظمها، وفي هذه الحالة لا بد من الاطلاع على آراء المتخصصين في النازلة بحسب نوعها، طبية كانت أو اقتصادية أو سياسية أو غير ذلك، وإذا كان الفقيه هو الأعلم بالنصوص الشرعية والأصول الفقهية وقواعد الفتوى وأدواتها، فتفاصيل المعاملات المالية يعرفها الاقتصاديون، والأمراض ومتطلباتها يعرفها الأطباء، وهكذا، وقد بيّن الونشريسي: «أنَّ الناسَ يفزعون عند معرفة أحوال الناس وتقديم بعضهم على البعض إلى الاختصاصات ودقائق الزيادات في حسن الفضل وكمال الحال»[٢].

فقه الواقع وعلاقته بأصول الفقه:

إن لفقه الواقع علاقة وثيقة بأصول الفقه، إذ هو العلم الذي يضبط عملية الاستنباط والتنزيل، ولا يمكن فهم النصوص الشرعية والتعامل معها إلا من خلاله؛ لذا فإن لفقه الواقع مصطلحاتٍ ترافقه، ولها صلةٌ قويةٌ به من قبيل تنقيح المناط الذي يعني في اصطلاح الأصوليين كونَ الوصف المعتبر في الحكم مذكورًا مع غيره في النص، فينقَّح بالاجتهاد؛ حتى يميَّز ما هو مُعتَبر مما هو مُلْغًى، مثل ما رواه أبو هريرة ﷺ، قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، فقال: (هلكتُ، قال: ولِم؟ قال: وقعتُ على أهلي في رمضان، قال: فأعتِقْ رقبةً، قال: ليس عندي، قال: فصُم شهرين متتابعين، قال: لا أستطيع، قال: فأطعم ستينَ مسكينًا، قال: لا أجد، فأُتي النبي ﷺ بعرقٍ فيه تمر، فقال: أين السائل؟ قال: ها أنا ذا، قال: تصدَّق بهذا، قال: على أحوج منا يا رسول الله؟ فوالذي بعثك بالحق، ما بين لابتيها أهلُ بيتٍ أحوج منا، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، قال: فأنتم إذًا)[٣].

فالحنفية والمالكية حذفوا خصوص المواقعة، وأناطوا الحكم بمطلق الإفطار، فجعلوا الإفطار علة لوجوب الكفارة، بخلاف الشافعية والحنابلة[٤].

فالمجتهد إذا اجتهد في استخراج الوصف الذي علَّق عليه الشارع الحكم، يتبين له أن الحديث يمكن أن يستخرج منه أوصافٌ أخرى، فلا بدَّ له من أن يخرج الأوصاف التي لا مدخل لها في العِلِيَّة لعدم صلاحيتها للتعليل، وهي في هذا الحديث: كون المجامع أعرابيًّا، وكونه قد وطئ في رمضان في تلك السنة، وكونه قد وطئ امرأته.

في النوازل المستجدَّة لا بد للفقيه من الاطلاع على آراء المتخصصين بحسب نوع النازلة، طبية كانت أو اقتصادية أو سياسية أو غير ذلك، وإذا كان الفقيه يعلم النصوص الشرعية وقواعد الفتوى، فتفاصيل الأمور الاختصاصية لها من يعرفها

علاقة فقه الواقع بفقه الأحكام الشرعية:

إنَّ فقه الواقع ينتجُ عنه الوصولُ إلى الفقه الدقيق للحُكم الشرعي؛ والوصول إلى الحكم الشرعي بمثابة توقيع عن الله أحكم الحاكمين، وعن الرسول الأمين، صلوات ربي وسلامه عليه إلى

(١) أخرج ابن أبي شيبة (٢٧٧٥٣): جاء رجل إلى ابن عباس فقال: لمن قتل مؤمنًا توبة؟، قال: «لا إلا النار»، فلما ذهب قال له جلساؤه: ما هكذا كنت تفتينا، كنت تفتينا أن لمن قتل مؤمنًا توبة مقبولة، فما بال هذا اليوم؟ قال: «إني أحسبه رجلاً مغضبًا يريد أن يقتل مؤمنًا» قال: فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك.

(٢) المعيار المعرب (٦/٣٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٦٨).

(٤) فتح القدير، لابن الهمام (٢/٣٢٧).

بعض الضوابط المهمة في فقه الواقع

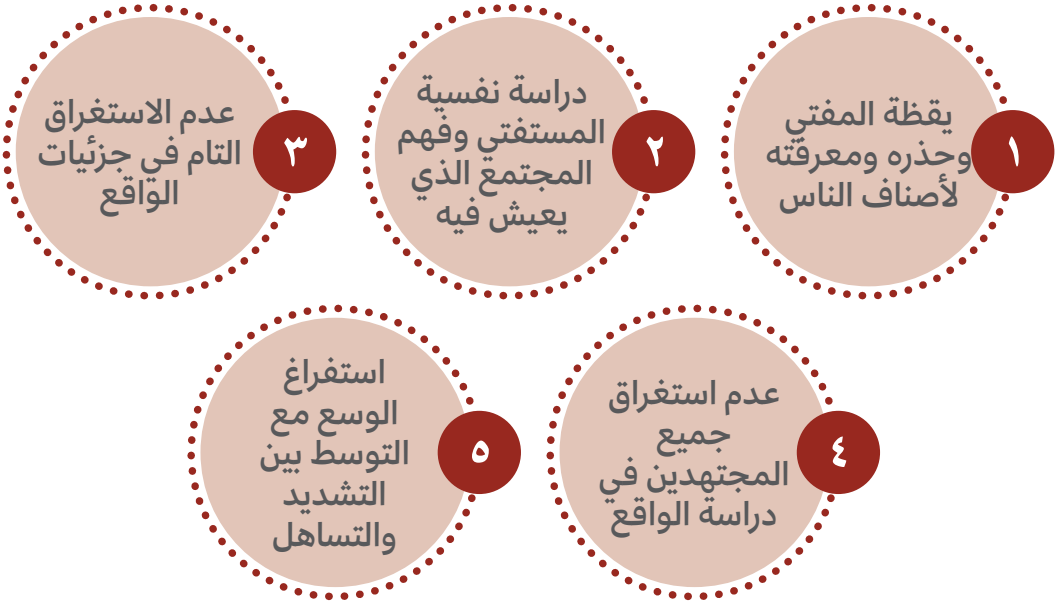

يوم الدين؛ وعليه فلا بد أن يكون بعلم، وإلا كان ضربًا من الافتراء والكذب، أو كان اتّباعًا للهوى والتعصب، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

ولذا فإن المجتهد يحتاج إلى بذل الجهد والوسع والطاقة من أجل تجلية الأحكام، وتنزيلها على الوقائع الحادثة والمستجدة التي لا نصَّ فيها صريح، تنزيلاً صحيحًا، يتماشى مع قواعد الاجتهاد، ولا يمكن تقويم اعوجاج المجتمع الإسلامي إلا بضبط فقه الأحكام الشرعية، مع مراعاة فقه الأولويات فيه؛ ذلك أن الله جَلَّ وعَزَّ لا يُعبد بجهل، وإنما يُعبد بعلم، والأمة اليوم تُعاني ما تعاني من أزمة عدم فقه الحكم الشرعي. فحينما نذهب إلى المساجد نجد تغييبًا لكثير من المسائل الفقهية، وحينما نذهب إلى الأسواق نجد الشيء نفسَه، وفي المدارس والجامعات حدِّث ولا حرج، وهلمَّ جرًا في كل القطاعات نجد الفقه مُغَيّبًا، وقَلَّ مَن يعلم الحكم الشرعي في المسألة التي يريد أن يُقدم عليها.

أهمية الاستفادة من الوقائع الماضية وأعراف الناس:

تُعدُّ الاستفادة من وقائع الماضي التي هي إما من قبيل السنن الكونية، أو من قبيل المسائل التي عالجت قضايا عرفها المجتمع الإسلامي من قبلُ؛ مُهمَّة وضرورية بالنسبة للمجتهد الذي تُوَجّه إليه المسائل قصد الإجابة عنها؛ لأنه سيبني معالجةَ واقعِهِ على ضوء ما عولجت به تلك القضايا من قبل إنْ كانت مشابهةً لها، وهي بدون شك تُفيد في فهم الحاضر، وتسهم في بنائه بناءً سليمًا، وفي استشراف المستقبل.

بعد ذلك تأتي طريقة معالجة قضايا الواقع، وتعتمد أساسًا على الاطِّلاع الواسع على أعراف الناس وعاداتهم وتقاليدهم؛ لكي يميز المجتهد بين ما هو موافقٌ للشرع فيعتمده، وبين ما هو مخالفٌ له فيطّرحه، ولا يتأتّى تحرير محلِّ النزاع ولا الفصل في أية حادثةٍ تحدُث للمجتمع الإسلامي إلا بعد بذل الجهد في معرفة العُرف الصحيح؛ لأنه هو المعتبر شرعًا، ومراعاته واجبة؛ كيف لا وهو دليلٌ مهمٌّ من الأدلة الإجمالية المعتمدة عند المالكية.

قال ابن عاصم:

العرف ما يُعرف بين الناس
ومثـله العـادةُ دون بـأس
ومقتضـاهـما معًا مشروع
في غير ما خالفه المشروع[١]

حتى إنَّهم اعتبروه نوعًا من المصلحة، وتوسَّعوا فيه كثيرًا فخصصوا به بعض العمومات من مثل: جواز بيع المعاطاة[٢]، فقد ذهب المالكية إلى القول بصحة هذا البيع، قال الشيخ خليل: «ينعقد البيع بما يدل على الرضا، وإنْ بمعاطاة»[٣]، بأن يأخذ المشتري المبيع ويدفع للبائع ثمنه من غير تكلم ولا إشارة ولو في غير المحقرات.

قال الدسوقي: «قوله: بما يدلُّ أي: عرفًا سواء دل على الرضا لغةً أيضًا، أو لا، كبعتُ واشتريتُ وغيره من الأقوال كالكتابة والإشارة والمعاطاة. وعلق الصاوي: «قوله: وما دلَّ على الرضى، أي: عرفًا سواء دلَّ عليه لغةً أيضًا أو لا...»[٤]، ويستدلُّون على دعواهم بالعرف؛ لأنَّ الشارع لم يوضح كيفية البيع ولا طريقة الإيجاب والقبول، بل ترك هذا كُلَّه إلى العرف، وحينئذ فإن البيع يكون صحيحًا بالمعاطاة.

ومعلوم أنَّ رسول الله ﷺ حين بعثه الله في قومه، وجد أعرافًا وعاداتٍ، فأقرَّ منها ما كان للشرع موافقًا، وأبطل ما كان فاسدًا ومخالفًا، وموقف الصحابة واضحٌ في هذا الأمر، فقد اعتبروه وحَكَّمُوه في كل ما لا يُصادم النص الشرعي، أو يتعارض مع روح مبادئه، فهم واجهوا خليطًا من العادات في البلاد التي فتحوها، فأقرُّوا الصالح منها، وألغَوا ما سواه، وموقف التابعين من العرف لا يختلف عن موقف الصحابة كذلك، وعلى مَهيع الصحابة والتابعين سار الأئمةُ بعدهم، فكلُّ المذاهب الفقهية حَكَّمَت العرف على اختلاف في التوسُّع في الأخذ به وعدمه، ولذا يجب على المفتي المجتهد أن لا يُصدر حكمًا ولا فتوى حتى يَعرف عُرْف البلد الذي هو فيه، وقد قال المقري في هذا المعنى: «كل متكلِّم له عُرف، فإنَّ لفظه يُحمل على عُرفه في الشرعيات والمعاملات»[٥]، وقال أيضًا: «من تقرَّرت له عادة عمل عليها»[٦].

مثال على ما تقدَّم:

إذا جرى عرفُ بعض الناس في الطلاق بلفظ التسميح، بحيث لا يعرفون لهذا المعنى غيرَه، فإذا قالت المرأة: اسمح لي، فقال: سمحتُ لكِ، فهذا صريحٌ في الطلاق عندهم[٧].وهذا بابٌ عظيم من لم يعرفه من المفتين أوقع الناس في الغلط، وكذب على الله ورسوله وغيّر دينه، وحرّم ما أحله الله، أو أحلّ ما حرمه الله، وأوجب ما لم يوجبه الله.

> **إذا لم يكن المفتي أو القاضي يقظًا فطنًا: راجَ عليه المكرُ والخداع، فقد يبدو له الظالم في صورة المظلوم، فإن لم يجتهد ويبذُل وُسعه في معرفة محيطه ومجتمعه، فإنه يصعب عليه التمييز بين الناس وأحوالهم، وقد تنطلي عليه الحيل**

نماذج معاصرة لفقه الواقع، وأهمية تصوُّرها في استنباط الحكم الشرعي:

إنَّ عصرنا الحالي كما تقدَّم يشهد تقدُّمًا ملحوظًا في فنون شتى، وما من مجال إلا ويحوي نوازل عديدة، فكان هذا سببًا داعيًا إلى الإحاطة بتلك النوازل، وتصوُّرها تصورًا صحيحًا من أجل الوصول إلى الحكم الشرعي، إذ الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّره، كما هو مُقرَّر عند المناطقة. والنماذج المعاصرة كثيرة جدًا، أذكر منها ما يلي:

١. فقه الواقع الافتراضي الذي يُعتبر مجتمعًا من نوع خاص، ويضم مسائل كثيرة، ينبغي الإحاطة بها، والتعرُّف على ما يجري به من معاملات تجارية، وعلاقات اقتصادية، وغيرها.

٢. معرفة واقع المنشآت الصناعية وما يروج داخلها، وما ينتج فيها من مواد استهلاكية، والمركّبات التي تدخل في إنتاجها.

---

(١) نظم مرتقى الوصول إلى علم الأصول لابن عاصم.
(٢) المعاطاة اصطلاحًا: هي أن يأخذ المشتري المبيع ويدفع للبائع الثمن، أو يدفع البائع المبيع فيدفع له الآخر ثمنه من غير تكلّم ولا إشارة.
(٣) مختصر خليل، ص (١٤٣).
(٤) ينظر الشرح الكبير للدردير مع حاشية الدسوقي الشرح الكبير (٣/٢).
(٥) القواعد لأبي عبد الله المقري، القاعدة ٤٥٣.
(٦) المصدر نفسه، القاعدة ١١٩.
(٧) ينظر: إعلام الموقعين، لابن القيم (١٧٥/٤).

٣. معرفة واقع المعاملات الاقتصادية المعاصرة، وتفاصيلها الدقيقة، ومداخلها ومخارجها.

٤. معرفة واقع بعض المواد الدراسية بالجامعات، وأثرها السلبي على الناس عمومًا، والشباب على وجه الخصوص (مثل مادة مقاربة النوع، أو ما يسمى بالجندر) وأثرها في الدعوة إلى الشذوذ الجنسي.

٥. معرفة واقع الهجرة، خاصة هجرةَ الشباب إلى الديار الغربية، وزواجهم بالكتابيات، والذي لم يعد يحقق المقصد الذي أباحه الإسلام من أجله.

٦. فقه واقع الأسواق وما يباع فيها، ومختلف المعاملات التي تجري بداخلها، سواء الأسواق الغذائية، أو الأسواق الإلكترونية، أو غيرهما.

٧. فقه واقع الأسرة وما تواجهه من تحديات ومشاكل.

٨. فقه واقع الجيران على مستوى العمارات السكنية، وما يحدث من مشاكل بسبب انتشار مد الفردانية.

على المفتي أن يتوسط بين التشديد على الناس والتسرع في التحريم، وبين تمييع الدين والتساهل في الفتوى بحجة الواقع الجديد غير المسبوق، وعليه أن يبذل جهده في تحري الجواب الصحيح بالمعرفة الشرعية المكتملة، والفهم الدقيق للواقع مع التوسط والاعتدال

بعض الضوابط المهمّة في فهم الواقع:

إن من الأمور الضرورية التي تعين المجتهد على فهم الواقع:

١. أن يكون المفتي متيقظًا حذرًا حتى يعرف الناسَ من جميع مستوياتهم، ومن جميع حيثياتهم؛ ذلك أن بعض الناس اعتاد المكر والخداع، فإن لم يكن المفتي أو القاضي يقظًا فطنًا راج عليه مكرُهم وخداعُهم[١]، فقد يتصوَّر له الظالم في صورة المظلوم، والزنديق في صورة الصدِّيق، والكاذب في صورة الصادق، فإن لم يجتهد ويبذُل وسعه في معرفة محيطه ومجتمعه، فإنه يصعب عليه التمييز بين هؤلاء الناس وأحوالهم، ويؤدي به الجهل بما تقدَّم إلى أن تنطلي عليه الحيل[٢]. وهذا مما لا يَليق بالمفتي المجتهد، وقد أومأ النبي ﷺ إلى هذا المعنى في قوله: (ولعلَّ بعضَكم أن يكون ألحنَ بِحُجَّته من بعض، وأقضي له على نحوِ ما أسمع...)[٣].

٢. دراسةُ نفسية المستفتي، والجماعة التي يعيش فيها المفتي المجتهد، ليعرف أثر الفتوى في مجتمعه سلبًا وإيجابًا.

والمعهود عند فقهاء المالكية وغيرهم، أنه لا يجوز للذي يهتم بالإجابة عن قضايا الناس الواقعة والمتوقعة، أن يُعالجها من غير أن يعرف عُرْف المجتمع الذي تنزل به تلك الوقائع والحوادث؛ لأنَّ الأحكام المبنية على الأعراف تتغير بتغير الزمان والمكان والإنسان، فإذا كان المجتهد يجهل حال الناس، ربما أفتى بغير الصواب، نتيجة جهله بعرف الناس.

ومن أجل أهمية معرفة عُرْف الناس اشترط فقهاء المالكية في إقامة الجمعة بالنسبة للإمام أن يكون مقيمًا، بحيث لا تصحُّ الجمعة خلف مسافر على الرأي الصحيح[٤]، وذلك حتى يطَّلع على ما يمكن معالجته من مستجدَّات الأسبوع.

٣. عدم الاستغراق في الواقع: بحيث يكون الانشغال بتفاصيل الحياة اليومية ودقائقها مستغرقًا لغالب الوقت والجهد، أو غالبًا على دراسة العلم الشرعي والتبحُّر فيه، ويكفي فيه ما يوضح الصورة ويوصل العلم ويرفع الجهالة، ومما يغني عن الاستغراق فيه: استشارةُ المتخصصين وسؤالهم، كما هو حاصلٌ في المجامع الفقهية ومجامع الفتوى من استشارة المتخصصين وسؤالهم في تصوير الواقعة وفهمها.

٤. عدم استغراق جميع المجتهدين فيه؛ فليس المطلوب من جميع المجتهدين وطلبة العلم أن ينشغلوا بمتابعة تفاصيل الواقع ومجرياته، إذ يكفي لذلك إحاطة فريقٍ منهم، كما قال تعالى:

(١) الفكر السامي ٢ / ٤٢٨.
(٢) إعلام الموقعين ٤ / ٢٠٥.
(٣) أخرجه البخاري (٦٩٦٧).
(٤) شرح ميارة الصغير، ص (٣٠٧).

أنواع المعرفة المطلوبة بفقه الواقع

الفتاوى الخاصة والشخصية	فتاوى النوازل وذات الطابع العام
المطلوب هو الإلمام بواقع المستفيد وأحواله والجوانب المؤثرة فيه	لا بد من الاطلاع على آراء المختصين في النازلة بحسب نوعها واستشارتهم

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

٥. استفراغ الوسع في النظر في القواعد والأصول والقطعيات، والتوسط بين التشديد على الناس والتسرع في التحريم وإيقاع الناس في الحرج، وبين تمييع الدين والتساهل في الفتوى بحجة الواقع الجديد غير المسبوق وأنَّ الواقع صار ضرورة لا يمكن الانفكاك عنه، وقد ينشأ مثل هذا من التغافل عن مراتب الأحكام والنصوص بين القطعي والظني وما إلى ذلك، والصحيح هو بذل الجهد في تحري الجواب الصحيح بالمعرفة الشرعية المكتملة، والفهم الدقيق للواقع مع التوسط والاعتدال في الفتوى.

لا يمكن استنباط الأحكام، أو تنزيلُها تنزيلاً صحيحًا على المستجدَّات إلا من قِبَلِ الفقيه المجتهد الذي توفَّرت فيه شروط الاجتهاد، وكان ماهرًا في كيفية التنزيل، ومحيطًا بفقه الواقع الذي يعيشُه في بيئته ومجتمعه

وختامًا:

الفقيه الواعي بجسامة ما كُلف به شرعًا، هو الذي يتفقَّد أحوال الناس، ويخرج إلى أماكن عملهم في المؤسسات التعليمية، والطبية، والحكومية، والدكاكين، والبساتين، وأوراش الأعمال، والمقاولات؛ حتى تكون له دراية بما يجري في عالم الناس، ولا يستطيع أن ينزِّل الأحكام على الوقائع تنزيلاً حقيقيًا إلا إذا خالط الناس، سواء كانت هذه المخالطة واقعية أو افتراضية، إذ لا يخفى ما نعيش اليوم في أمواج التكنولوجيا العاتية، والتي فيها أمورٌ غامضةٌ جدًا، فلا بد إذًا من الإحاطة بتلكم الأحداث، وتلكم المسائل التي صارت جزءًا لا يتجزَّأ من حياة الناس اليوم، بغضّ النظر عن السلبيات أو الإيجابيات المحيطة بها، وذلك مثل حكم الصداقة الافتراضية، وما ينبني عليها، وهل يمكن أن تقاس على الصداقة الحقيقية؟ ومثل طلب الصداقة من ذكر لأنثى في وسائل التواصل الاجتماعي (فيسبوك، تويتر، انستغرام، واتساب..) والعكس بالعكس، ومثل حكم إجراء كثير من العقود عبر وسائل التواصل، وهل تعتبر أو لا؟ وهل الأيمان المكتوبة في الدردشات منعقدة أو غير منعقدة، وهلم جرًا.

مع العلم أن تاريخ الأمة الإسلامية سجل لنا حضور الفقهاء ومشاركاتهم في ميادين كثيرة من المهن، والحرف، وأنواع التجارة، فكان منهم الخراز، والزيات، والخياط، والنساج، والجندي وهلم جرًا..

وعلى ضوء ما سبق، يمكن القول إنَّه لا يمكن إيجاد الأحكام، أو تنزيلُها تنزيلاً صحيحًا على المستجدَّات إلا من قِبَلِ الفقيه المجتهد الذي توفَّرت فيه ضوابطُ وشروط الاجتهاد، وكان أيضًا ماهرًا في كيفية التنزيل، ومحيطًا إحاطةً كاملةً بفقه الواقع الذي يعيشُه هو أولاً، ومجتمعه ثانيًا، فمن كان ضعيفًا فيه زلَّ في تقرير الأحكام، والْتبستْ عليه المسائل حتى صار يتخبَّط في كثيرٍ من الأوهام.

ربَّ خشيةٍ أثمرت قائدًا ربانيًا

د. عمر النشيواتي (*)

للعمل الصالح بركةٌ لا يدركها إلا ذوو الحجى والألباب، والإخلاص لله تعالى يفعل الأعاجيب، فيرفع أقوامًا فوق ما يظنُّ الناس، ويتقدَّم آخرون بما وقر في قلوبهم من الإيمان والخشية على بعض المكثرين من العبادات والأعمال، وفي هذا المقال مثالٌ على موقفٍ متجرِّدٍ لله من فتاةٍ صادقةٍ كانت ثمرتُهُ بزوغ قائد من قادة الإسلام العظماء

المتأمِّل في خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله التي كانت شامة في جبين الأمة، وأنموذجًا يقتدى به، يُدرك أنَّها ما كانت لتقوم هكذا عفوًا بلا تدبيرٍ ولطفٍ ورعايةٍ خاصةٍ من اللطيف الخبير.

فتعال لنتأمَّل كيف هيَّأ الله لتلك البذرة العمرية سببًا، ثم سقاها ورعاها بأسباب أخرى متضافرة حتى استوت على سوقها، ثم مكَّن لها على أعلى مستوى.

فكيف كانت البذرة؟ وما هي الأسباب التي اجتمعت لها؟

مراقبة الله في السر:

كان عمر بن الخطاب ﷺ يعسُّ كعادته في طرقات المدينة ومعه مولاه أسلم، فلمّا أعيا واتَّكأ على جدارٍ، سمع حوارًا بين امرأتين تطلب فيه الأمّ من ابنتها أن تخلط الحليب بالماء ليكثر حجمه فيباع بربحٍ أكثر، فأبت البنت، وأخبرت أمَّها أنَّ أمير المؤمنين عمر قد نهى عن هذا الفعل! فقالت الأم: «يا بنيَّة، قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنَّك بموضعٍ لا يراك عُمر ولا مُنادي عمر!»

فقالت الصبية لأمِّها: «يا أمَّتاه ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء»، وعمر يسمع كل ذلك»[1].

فلَفَتَ جوابُ هذه الفتاة الصالحة انتباهَ الفاروق عمر، وهو الأريب النبيه.

الحرص على الأولاد والنصح لهم:

الفاروق رجلٌ يقظ، لا يحمل همَّ نفسه فحسب، بل يفكِّر في أولاده ومجتمعه وأمَّته؛ فقد بقي موقف

(*) طبيب، وكاتب مهتم بالقرآن وعلومه.

(١) تاريخ دمشق (٢٥٣/٧٠).

هذه البنت في ذهنه، وطلب من خادمه أن يعلِّم الباب ويعرفه، ثم أمَرَهُ في الصباح أن يسأل عن أهل هذا البيت؛ من هم؟ وما حال الأسرة؟ وما وضع البنت؟

وبعد أن عرف وضعهم، جَمَع أولاده وحكى لهم عمَّا علم من أمر هذه البنت، وسألهم: «هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أُزوِّجه؟ فقال عبد الله: لي زوجة، وقال عبد الرحمن: لي زوجة، وقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي، فزوِّجني، فبعث إلى الجارية فزوَّجها من عاصم، فولدت لعاصمٍ بنتًا وولدت البنت عمر بن عبد العزيز»[١].

فلم يكن ينتظر أولاده حتى يُفكِّروا في الزواج ليبحث عن زوجةٍ لهم، بل يتحرَّى بنفسه لهم من تخاف الله وتتَّقيه.

> **الفاروق رجلٌ يقظ، لا يحمل همَّ نفسه فحسب، بل يفكِّر في أولاده ومجتمعه وأمَّته؛ ولم يكن ينتظر أولادَه حتى يُفكِّروا في الزواج ليبحث لهم عن زوجةٍ، بل كان يتحرَّى بنفسه لهم من تخاف الله وتتَّقيه**

اختيار ذات الدين:

لقد هيأ الله لعمر بن عبد العزيز أبًا صالحًا من أسرة حَسَب ونَسَب، فعبد العزيز بن مروان بن الحكم، كان من خِيار أُمراء بني أمية، شجاعًا كريمًا، وبقي أميرًا لمصر أكثر من عشرين سنة، وكان من تمام ورعه وصلاحه أنه لما أراد الزواج قال لقَيِّمه: «اجمع لي أربعمائة دينار من طيِّب مالي؛ فإني أريد أن أتزوَّج إلى أهل بيت لهم صلاح»[٢]، فتزوج ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وهي حفيدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وكان بإمكانه أن يطوف البلاد المترامية الأطراف شرقًا وغربًا، وينتخب لنفسه ذوات الجمال والدلال، لكنه آثر الاختيار من البيت العمري المعروف بتربيته الربَّانية.

تربية صالحة:

ترك عبد العزيز بن مروان ابنه عمر في المدينة عند أخواله آل عمر بن الخطاب فنشأ بينهم وتربَّى على أخلاقهم، واختار له أبوه صالحَ بن كيسان مربيًا فتولَّى تأديبه، وكان يُلزم عمر الصلوات المفروضة في المسجد، فحَدَثَ يومًا أن تأخَّر عمرُ عن الصلاة مع الجماعة، فقال له صالح بن كيسان: «ما يشغلك؟»، قال: «كانت مرجّلتي (مسرِّحة شعري) تسكِّن شعري»، فقال: «بلغ منك حبُّك تسكينَ شعرك أن تُؤثِره على الصلاة؟»، فكتب إلى عبد العزيز يذكر ذلك، فبعث أبوه رسولاً فلم يكلِّمه حتى حلق رأسه[٣]. ولما حج أبوه ومرّ بالمدينة سأل صالحَ بن كيسان عن ابنه فقال: «ما خبرت أحدًا، اللهُ أعظمُ في صدره من هذا الغلام»[٤]. ونشأ بين أصحاب النبي ﷺ وكبار التابعين نشأة أدبٍ وعلمٍ ودين.

مشورة صادقة وموقف مشهود:

لما تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة، قرَّب ابن عمِّه عمر بن عبد العزيز، وكان يُعجَب برأيه ومشورته، بل أخذ بكثير منها خصوصًا في عزل الولاة الظالمين، وكان عمرُ يعظُهُ ويذكره بالآخرة في كل مناسبة، حتى كان له أثر بالغ في نفس سليمان.

ولما أحسَّ سليمان لمرضه بقرب منيَّته، أراد الوصية من بعده لابنه، واستشار في ذلك التابعيَّ الجليل رجاء بن حيوة، فثناه عن عزمه، وأشار عليه بعمر بن عبد العزيز، فأعجبه ذلك، وأخذ بهذه المشورة، وقال قولته: «والله لأعقدن عقدًا ليس للشيطان فيه نصيب»[٥]، وجمع أمراء بني أمية وأخذ عليهم العهد أن يُبايعوه، وهكذا تمَّ الأمر وسعدت الدنيا بخلافةِ عدلٍ ذكَّرت الناس بعدل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

> **جعل الله سبحانه وتعالى لكل شيءٍ سببًا، ورتب النتائج العظيمة على الأسباب الصالحة، فكان اجتماع الأسباب الصالحة في حالة عمر بن عبد العزيز واضحًا جليًا**

(١) المرجع السابق نفسه.
(٢) الطبقات الكبرى (٣٢٥/٧).
(٣) المعرفة والتاريخ (٥٦٨/١).
(٤) البداية والنهاية (٦٧٨/١٢).
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، لابن عبد الحكم، ص (٢٤).

> **تأمَّل كيف أخرج الله عمر ﷺ من بيته في جوف الليل ليعسَّ المدينة، ثم قدّر أن أصابه الإعياء ليتّكئ على جدار ذلك البيت في ذات اللحظة التي تنطق فيها تلك البنت الصالحة كلماتها التي خلّدها التاريخ، ثم يُلهمه أن يزوِّجها لابنه عاصم ويدعو له بما دعا**

حكمة الله تعالى وعلمه الواسع:

جعل الله سبحانه وتعالى لكل شيءٍ سببًا، ورتب النتائج العظيمة على الأسباب الصالحة، فكان اجتماع الأسباب الصالحة في حالة عمر بن عبد العزيز واضحًا جليًا، ابتدأ من تقوى البنت الهلالية التي سمعها عمر تحاور أمَّها في جوف الليل، وانتهى بخلافةٍ كانت نموذجًا فذًا يقتدى به إلى يوم القيامة.

ولعل الله تعالى أراد إكرام الفاروق عمر فقدَّر له رؤيا يراها؛ فإنَّ مما تواترت فيه الأخبار: ما كان من رؤيا عمر التي كان يبشِّر بها المؤمنين، وتناقلت الأجيال تلك الرؤيا مترقبة تحققها في هذه الأمة.

قال عبد الله بن عبد الحكم: «واستيقظ عمر من نومه فمسح النوم عن وجهه وفرك عينيه وهو يقول: من هذا الذي من ولد عمر يسمى عمر يسير بسيرة عمر؟، يردِّدُها مرات».

وقال: «وأخبرني الليث بن سعد أنه كان يقال: الفراسة فراسة العزيز في يوسف النبي عليه السلام حين قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، وفراسة عمر بن الخطاب في الهلالية حين قال لولده تزوجها والله ليوشكن أن تأتي بفارس يسود العرب فأتت بعمر بن عبد العزيز»[١].

درس بليغ:

تأمَّل كيف أخرج الله عمر بن الخطاب ﷺ من بيته في جوف الليل ليعسَّ المدينة، ثم قدّر أن أصابه الإعياء ليتّكئ على جدار ذلك البيت في ذات اللحظة التي تنطق فيها تلك البنت الصالحة كلماتها التي خلّدها التاريخ، وتقع في أذن عمر مقالتها، ثم يُلهمه أن يزوجها لابنه عاصم ويدعو له بما دعا، ثم تكون تلك الرؤيا الصالحة التي تتناقلها الأجيال، حتى يسَّر لتلك الأسرة الصالحة عبد العزيز بن مروان وليَّ عهد الخلافة الأموية ليتزوَّج من ابنتهم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، فيكون منهما ذلك الفتى الأشجّ، وهيَّأ له تربيةً خاصةً في مدينة رسول الله ﷺ، ليكون وزير الخليفة سليمان بن عبد الملك رحمه الله، ويتربع بعدها على كرسي الحكم وتتحقَّق فيه رؤيا عمر ﷺ فيسير بسيرته، وصدق الله إذ قال على لسان يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، قال السعدي: «يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهُها ...»[٢].

وربَّ خشيةٍ أثمرت قائدًا ربانيًا.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، لابن عبد الحكم، ص (٢٤).
(٢) تفسير السعدي، ص (٤٠٥).

دور التشجير والتخضير في حِفظ مقاصد الشريعة

د. عبد الكريم بناني (*)

الشريعة الإسلامية ليست رهبانية مقتصرة على الشعائر التعبُّدية، بل هي منهج شامل متوازن للحياة، ومفتاح للسعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة، فما يقيم الحياة الدنيا مطلوبٌ شرعًا وينفع في الآخرة، وما يضر بالحياة منهي عنه ويعرِّض المرء للحساب في الآخرة، وهذا المقال يبين كيف يكون للحفاظ على البيئة أثر في حفظ مقاصد الشريعة الإسلامية.

مدخل:

اهتمَّ الشرع الحكيم بتشجير الأرض وتخضيرها بالنباتات والزروع اهتمامًا كبيرًا، تجاوَز حدود الرِّعاية الفردية إلى تأصيلِ فهمٍ جماعي يُسهِم في إيجاد بيئة متوازنة تقوم على أساس تعزيز الأمْن البيئي وتحافظ على مقومات العيش الذي يلبِّي حاجيات الإنسان؛ وهو ما يحقق حفظ الكليات الخمس: الدِّين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

فقبل أن يعرف العالَم ما يسمَّى «يوم أو أسبوع الشجرة»، وقبل أن ينشغل المجتمع الدولي بتنظيم المؤتمرات والندوات للحديث عن «التغيُّر المناخي»، ويدعو إلى العناية بالبيئة، وغرس الأشجار؛ حفاظًا على التوازن البيئي، لمواجهة مخاطر التصحُّر ونتائج الاحترار وآثار التقدُّم الصناعي وغيرها؛ فإنَّ الإسلام قد بيَّن في نصوص كثيرة آثار زرع الأشجار وتخضير المحيط على المجتمع، إلى جانب مفاهيم وقواعد تحثُّ الناس لفهم المقاصد ورعاية المصالح من هذا الأمر؛ فالناظر في الشريعة يجد أن التَّشجير والتَّخضير يدفع بإقامة كليات الشريعة الخمس من جانب وجوديٍّ بناءً وتعزيزًا ومن جانب عدميٍّ بدرءِ الخلل فيها.

فالحفاظ على البيئة بغرسِ الأشجار وسيلة مهمة لحفظ مقاصد الشريعة الإسلامية، لا ترتبط فقط بمرتبة التحسينيات التي تُعنى بتجميل أحوال الناس، والأخذ بما يليق من محاسن العادات، بل ترتقي أيضًا إلى مرتبة الحاجيات، وقد تصل

(*) باحث متخصص في الدراسات الشرعية والمقاصدية، رئيس جمعية البحث في الفكر المقاصدي.

إلى الضروريات التي تختلُّ الحياةُ بفقدها، ولأنه يحققُ معاني الاستفادة من نعمة الماء التي سخرها الله لعباده، لارتباطه بالتشجير والتخضير ارتباطًا كبيرًا، لقوله تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١].

الشريعة الإسلامية تجعل من أمر الاعتناء بما يسهم في إعمار الأرض من تشجير وتخضير أمرًا تعبُّديًا، يترتب عليه الأجر والجزاء الأخروي

١-دور التشجير والتخضير في حفظ مقصد الدِّين:

إنَّ الحفاظ على البيئة السليمة، والمحيط المتوازن واجبٌ شرعي؛ لما فيه من المحافظة على مبدأ الاستخلاف في الأرض، لذا فالتعدي على البيئة عمومًا ينافي هذا المبدأ، لما فيه من الإيذاء، وقد قال النبي ﷺ: (الإيمانُ بضعٌ وسبعون أو بضع وستون شُعبة، فأفضلُها قولُ لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق)[١].

فالتديُّن الحقيقي لا يرتبط بالتعبُّد فحسب، بل لا بدَّ إلى جانب ذلك من حُسن المعاملة وحماية الأرض ودفع الأذى عن الناس والبيئة عمومًا، فإماطة الأذى مفهومٌ عام في أي أذى، سواء كان أذىً مباشرًا كالحجارة والأغصان في طريق الناس، أم كان أذىً غير مباشر كالتلوث البيئي والانبعاثات الضارة.

والشريعة الإسلامية، تجعل من أمر الاعتناء بما يسهم في إعمار الأرض، من تشجير وتخضير أمرًا تعبُّديًا، يترتب عليه الأجر والجزاء الأخروي، بالإضافة إلى المنافع الدنيوية؛ فهو كغيره من الأعمال الصالحة يحفظ كليَّة الدِّين ويدفع نحو إقامتها ويثبت وجودها، فيتحقق به رضا الله سبحانه وتعالى، ويترتَّب عليه الأجر الذي ينفع صاحبه حتى بعد موته، قال رسول الله ﷺ: (سبع يجري للعبد أجرهن من بعد موته، وهو في قبره: من علَّم علمًا، أو كرى نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجدًا، أو ورَّث مصحفًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته)[٢]، أي أن أجرَه باقٍ له ولأهله وعقبه، ويترتب معه الأجر الأخروي بقدرٍ ما يثمر عمله الدنيوي.

وفي مقابل هذا الحث، نجد النهي عن قطع الشجر وتدمير النبات والزرع، حيث يعتبر هذا الأمر بابًا من أبواب الفساد المنهي عنه، والذي نبَّهت إليه الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، فالفساد المنهي عنه متعلق بكل ما وجد لنفع الناس، لأن وجوده كان لحكمة؛ وقطع الشجر وتدمير النبات وتخريب البيئة من الإفساد المنهي عنه.

كما نلمس في سيرة الخلفاء الراشدين مظهرًا راقيًا في التعامل مع التشجير والتخضير؛ حيث نجدهم يوصون الجيوش بعدم قطع الشجر والنخل أو حرقها، قال أبو بكر ﷺ في وصيته ليزيد بن أبي سفيان لما بعثه أميرًا على الجيش: «ولا تَقطَعوا مُثمِرًا، ولا تُخَرِّبوا عامِرًا، ولا تَذبَحوا بَعيرًا ولا بَقَرَةً إلَّا لمأكَلٍ، ولا تُغَرِّقوا نَخلًا ولا تُحرِّقوه»[٣].

بل أكثر من ذلك، فإنَّ الحرص على غرس الشجر وتجنب ترك ذلك في جميع الظروف لا يقتصر على حال معينة أو زمن معيّن، يقول النبي ﷺ: (إن قامت على أحدكم القيامة، وفي يده فَسِيلَةٌ فليغرسها)[٤]، وفيه حثٌّ ودعوة للمؤمنين على الزراعة وزرع الأشجار المثمرة وأن تكون لهم همة عالية تدفعهم إلى عدم التهاون والتكاسل في الأمر، «فالعمل هنا يُؤدَّى لذات العمل، لأنَّه ضربٌ من العبادة، والقيام بحقِّ الخلافة لله في الأرض إلى آخر رمق»[٥].

(١) أخرجه مسلم (٣٥).
(٢) أخرجه البزار (٧٢٨٩).
(٣) أخرجه البيهقي (١٨٢٠٣). وهنا ملحظ لطيف: فقد ثبت في سنَّة النبي صلى الله عليه وسلم لعنُ من يتعرض لظلِّ الناس بالإفساد، فعن مُعاذِ بنِ جَبَل رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (اتقوا المَلاعِنَ الثلاثة: البَرازَ في المَوارِدِ، وقارِعَةِ الطريقِ، والظِّلِّ) (أخرجه أبو داود: ٢٦)، فالمتخلِّي في طُرقات الناس وأماكِن جلوسهم وظلهم متعدٍّ عليهم، مؤذ لهم، وهكذا فقطع الشجرة وإفساد ظلها قد يُلحق الشخص بهذا التعدي، فتلحقه لعنة من الناس بما آذاهم به..
(٤) أخرجه أحمد (١٢٩٠٢).
(٥) رعاية البيئة في شريعة الإسلام، ص (٦٣).

نلمس في سيرة النبي ﷺ مظهرًا راقيًا في التعامل مع التشجير والتخضير؛ حيث نجده يوصي جيوشه بعدم قطع الشجر والنخل أو حرقها، وهذا لا يقتصر على حال معينة أو زمن معيّن، فهو يوصي بزرع الشجر وغرسه حتى لو قامت السّاعة

٢- دور التشجير والتخضير في حفظ مقصِد النَّفس:

يرتبط وجود الإنسان في هذه الحياة بتوفير وسائل العيش كالأكل والشراب، وهي وسائل لإقامة مقصد حفظ النفس البشرية، ترتبط بالشجر والزرع ارتباطَ أصلٍ بأصل، فما يخرج من الأرض بأمر الله يرتبط بالزرع والغرس والنبات، تنتفع به النفس الإنسانية لتقيم صُلبها في تحقيق المقصد العام من الخلق، ولذلك وجدنا بعض الدول التي لم تستفد من تحقيق هذا المقصد تعاني من أزماتٍ اقتصادية، تجعلها تعتمد في توفير غذائها على استيراد هذه الوسائل الضرورية من غيرها من الدول.

فارتباط الحياة الإنسانية بالشجر والخضرة عمومًا لا يقتصِر على التغذِّي مما يخرج منها من ثمر وزرع مباشرةً، بل يمتد إلى التغذِّي بما يعيش عليها، كالبهائم التي تقتات مما تُخرج الأرض؛ فما أبيح للإنسان من الأنعام وأجيز له ذبحه وأكله يتغذى على النَّبات والزرع، وهو ضرورة من ضروريات حياته ووجوده، وبالتالي فالعناية بنظام التشجير والتخضير والزرع يُسهم في حفظ النفس البشرية، ويكفل لها استمرار البقاء.

ومن أهم ما يسهم به التشجير وزيادة المساحات الخضراء: تحسين الصحة العامة، بل إنَّ التداوي من الأمراض والأسقام يعتمد على النباتات التي تدخل في صناعة الأدوية والعقاقير الطبية منذ القدم حتى اليوم.

ومن الأشجار المباركة: النخل الذي قال النبي ﷺ عن ثمرته: (بيتٌ لا تمر فيه جياع أهله)[١] لبركة هذه الثمرة وفوائدها الجمة، وأبرز أنواعه عجوة المدينة بفوائدها الوقائية والعلاجية، قال ﷺ: (من تَصبّح كل يوم سبع تمرات عجوة، لم يضره في ذلك اليوم سمٌّ ولا سِحرٌ)[٢]، وكذلك نبتة «الحبّة السوداء» التي قال عنها النبي ﷺ: (في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السَّام)[٣].

والعسل الذي ينتجه النحل من النباتات والأزهار، يتخذ ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] فيه شفاء للناس، قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، ولكل نوع من أنواع العسل فائدته الصحية التي ترتبط بما يتناوله النحل كغذاء له من نبات الأرض النافع.

وإذا تأملنا حديث النبي ﷺ: (ما أنزل الله داءً، إلا قد أنزل له شفاءً، علمه من علمه، وجهله من جهله)[٤]، ودخول كثير من النباتات في صناعة الدواء، فيمكن اعتبار هذه دعوة من النبي ﷺ، للعناية بزراعة هذه النباتات المهمة لصحة الإنسان والعناية بها.

ويمتد نفع التشجير والتخضير في بنائِه المقصِدي في استخدام الأشجار للاحتماء من حرارة الشمس والانتفاع بظلالها للوقاية من حرارة الشمس المفرطة، وما له من أثر في إحياءِ النفوس والحفاظ عليها.

من أهم ما يسهم به التشجير وزيادة المساحات الخضراء: تحسين الصحة العامة، بل إن التداوي من الأمراض والأسقام يعتمد على النباتات التي تدخل في صناعة الأدوية والعقاقير الطبية منذ القدم حتى اليوم

كما أكّدت الدراسات العلمية الحديثة ما يحققه التشجير وإحداث المناطق الخضراء «من تأثير مباشر على صحة الإنسان من خلال العمل على تلطيف الجو وإيجاد التوازن المناخي. وإهمال التشجير في المقابل قد ينعكس سلبًا على صحة الإنسان»[٥]، التي تضعف بفعل التأثيرات الجوية،

(١) أخرجه مسلم (٢٠٤٦).
(٢) أخرجه البخاري (٥٤٤٥)، ومسلم (٢٠٤٧).
(٣) أخرجه البخاري (٥٦٨٨)، ومسلم (٢٢١٥)، والسَّام: الموت.
(٤) أخرجه أحمد (٣٥٧٨).
(٥) مقصد حفظ البيئة وأثره في عملية الاستخلاف، فريدة زوزو، ص ٩١.

خلاصة دور التشجير والتخضير في حفظ الكليات الضرورية

مما يوضح أن إرشاد الشارع الحكيم لغرس الأشجار والحث على تخضير المناطق يحقق مقصدًا مهمًا في حفظ النفس الإنسانية؛ ونظام التشجير يسهم في زيادة غاز الأوكسجين في الجو، والتقليل من كمية ثاني أكسيد الكربون، أي إعادة التوازن البيئي والحراري فوق كوكبنا، والذي ينعكس إيجابيًا على صحة الإنسان.

فزيادة عدد المساحات الخضراء من شأنه تقليص الملوثات، المؤدية إلى ما يعرف بالاحترار العالمي وتلوث الهواء.

٣- دور التشجير والتخضير في حفظِ مقصِد العقل:

حفظ العقل متضمَّن في حفظِ النفس؛ إذ لا تنفك ذات الإنسان عن عقله، فهو جزء من النفس؛ وكل ما يحفظ النفس البشرية ويقيمها، فهو في الحقيقة يحفظ كلية العقل، ويدفع بإقامتها أيضًا.

فالنظر في اختلاف الزروع وأنواع الفواكه والثمار، التي جعلها الله لعباده، مع أنها تسقى من ماء واحد، وفي البذرة اليابسة الميتة كيف يخرج الله منها الحياة؟! وفي مراحل حياة النبات وأوجه الشبه والربط بينها وبين حياة الإنسان؛ تُسهم بمجموعها في خلق جوٍّ من التأمل والتدبر والتفكر النافع للعقل، بل تبني في العقل التصورات الصحيحة المؤدية إلى الهداية وسلامة الفكر، وهذا النظر مطلوب شرعًا، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

ويتكرر في القرآن كثيرًا تشبيه إحياء الأرض الميتة بالزرع والنبات بإحياء الناس بعد الموت، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، وأيُّ صحة للعقل أبلغ من هدايته وإيمانه؟ فدعوة الشارع الناسَ لحفظ العقل تتأتى بالتفكر والتدبر في خلق السماوات والأرض وبإعماله فيما ينفع صاحبه من علم وإبصار يهتدي به إلى الحق والهدى، وتعطيل إعمال العقل مفضٍ بصاحبه إلى التهلكة.

ومن أهداف اهتمام الشارع وحثّه على زراعة الأشجار وإحداث المناطق الخضراء؛ ما تبين من أثرها النفسي على صحة الإنسان العقلية وراحته المرتبطة بالشعور بالسعادة عند رؤية الخضرة والنباتات عمومًا، وكلها تأثيرات ينتفع بها العقل لأنها تعمل على رفع أداء الذاكرة وتقويها، كما يعمل هذا التركيز المفعَم بالشعور بالراحة

النفسية وإزالة الاكتئاب المعطِّل للتفكير السليم، في تحسين قدرة الإنسان على التركيز والانتباه بتحفيز الحواس؛ فالأثر الذي يحدثه وجود الشجر والنبات، لا يقتصر على تقديم الوصفات العلاجية للأمراض العقلية التي تصيب الإنسان، بل يمتد ليصبح سببًا مباشرًا لتحقيق الصحة العقلية.

أضف إلى ذلك، أنه يعمل على تنقية الجو، مما يساعد على تمكين دماغ الإنسان من هواء نقي يساعد على الاسترخاء وتحفيز الراحة العقلية التي تتيح إمكانية التفكير واستعمال العقل استعمالاً سليمًا وفق ما هو مطلوب من المكلَّف شرعًا، فضلاً على أن الرائحة التي تخرج من النبات، تمكن من تحقيق الاسترخاء وتدفع الدماغ للشعور بالراحة، مما يؤثِّر على سلامة الإنسان العقلية، التي من شأنها تمكينه من استعمال عقله فيما ينفع[1].

ويذكر أحد الباحثين المشاركين في دراسة خاصة بتأثير التخضير على الصحة النفسية، أن: «هناك أدلة متزايدة على أن رؤية المناطق الطبيعية مقارنة بالمناطق الحضرية تفيدنا على الأقل شعوريًا من الناحية المزاجية، وربما أيضًا من ناحية تطورنا الإدراكي»، وأضاف: «يمكنك اعتبار فوائد الصحة العقلية هذه مثل خدمة نفسية من النظام البيئي»[2].

فالتشجير له تأثير واضح على صحة الإنسان العقلية، وحمايتها من الضعف والإصابة بالأمراض، والإسهام في علاجها في حال الإصابة.

كما أن الانتباه لهذه الأمور يبين أهمية فهم تنزلات الخطاب القرآني في بيانه لأهمية بعض الأشجار بذكرها المخصوص ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: ١١]، ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، أو قسمه ببعضها ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]، وترغيب النبي ﷺ في زرع الشجر والنخل في العديد من الأحاديث النبوية.

من أهداف اهتمام الشارع وحثّه على زراعة الأشجار: أثرها النفسي على صحة الإنسان العقلية وراحته المرتبطة بالشعور بالسعادة عند رؤية الخضرة، وكلُّها تأثيرات ينتفع بها العقل؛ لأنها تعمل على رفع أداء الذاكرة، وإزالة الاكتئاب المعطِّل للتفكير السليم

٤- دور التشجير والتخضير في حفظ مقصِد النَّسل:

حفظ كلية النسل في الشريعة الإسلامية من جانب الوجود، تنطلق من الترغيب في الزواج، والحثّ عليه؛ والزواج تعتريه الأحكام الخمسة، حسب القدرة والاستطاعة المادية والنفسية والجسمية، وتوافر المؤهلات الاجتماعية؛ ومن أهم الأسباب التي تدفع الشباب إلى الزواج وجود حافز مادي، وهنا نجد أن الإسلام قد حث على تملك الأراضي لاستزراعها وغرس الشجر للانتفاع بثماره، قال النبي ﷺ: (من أحيا أرضًا ميتةً فهي له)[3]، ففي هذا الترغيب بإحياء الأرض الموات -التي لا يملكها أحد- وزراعتها وإصلاحها وتنميتها وإقامة أسباب المعيشة فيها؛ تشجيع على إعمار الأرض بتمليكها لمن يرغب في استصلاحها، مما يدفع إلى إيجاد فرص للعمل وزيادة الدخل، وهي من أهم أسباب الإقبال على الزواج وتكوين العوائل.

فتمليك الناس الأرض لاستصلاحها والانتفاع بها من شأنه الدفع بهذا المقصد؛ وقد تحقَّق على مستوى المجتمع المسلم في كثير من الأوقات؛ بل أثر ذلك ظاهر وجلي، فكثير من الشباب تمكَّنوا من تكوين أُسَر بسبب تملُّكهم للأراضي غير الزراعية، وقيامهم بعملية إصلاحها وغرسها للانتفاع بها، بعد تشجيرها وتخضيرها.

كما أنَّ الإضرار بالصحة العامة من خلال القضاء على المناطق الخضراء هو في الواقع إضرار بكلية النسل أيضًا؛ لأنها تتأثر بقدرة الإنسان على الإنجاب، فالأمراض النفسية والجسمية تؤثر بشكل

(١) ومن ذلك دراسة أجراها فريق من الباحثين في جامعة بنسلفانيا بمدينة فيلادلفيا الأميركية، خلصت أن التخلص من القمامة وزراعة الحشائش والأشجار وتحسين شكل المناطق المقفرة، يمكن أن يحد من الشعور العام بالاكتئاب والدونية، وأن تجميل المناطق المهملة يمكن أن يكون وسيلة غير مكلفة لتحسين الصحة النفسية للمجتمعات، الدراسة منشورة في دورية «جاما نتووركْ أوبن JAMA NETWORK OPEN» تحت عنوان: «تأثير تخضير الأراضي الخالية على الصحة العقلية للبالغين الذين يعيشون في المجتمع: تجربة عشوائية عنقودية - Effect of Greening Vacant Land on Mental Health of Community-Dwelling Adults».

(٢) ينظر مقالة: «هل يمكن العلاج بالاقتراب من الطبيعة؟» على موقع BBC، والنص المذكور للباحث غريغوري براتمان من جامعة ستانفورد.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٠٧٣).

واضح على عملية الإنجاب، وقد تكون سببًا واضحًا في عقم الانسان، نتيجة تعرضه لتلوث بيئي خطير.

لذلك تَعدُّ منظمة الصحة العالمية الهواء السيء هو الخطر الأكبر على الصحة البيئية؛ وقد تأكَّدت هذه المعطيات بعد صدور عدد من الدراسات التي أثبتت أن انخفاض مستوى التلوث في منطقة ما يسهم في ارتفاع معدلات الخصوبة بهذه المناطق بشكل ملحوظ في السنة التالية[١]، «فإذا لاحظنا وجود تأثير على الخصوبة وفقدان الحمل، فهي علامة على أن التلوث يؤثر على الجسم بطريقة ضارة»[٢].

والشجر يعمل على القضاء على الكثير من المواد الخطيرة والضارة، وتنقية الهواء من السموم والملوثات المنتشرة فيه؛ لذلك تعمل الكثير من الدول على تخفيف التلوث أو القضاء عليه بالتشجير، ومن ذلك غرس الأشجار في الطرق الرئيسية، للحدِّ من الآثار الخطيرة لدخان السيارات، وقد ذكرت صحيفة «تليجراف» نقلاً عن الدراسة التي أجرتها جامعة إكستر البريطانية؛ وتعد الأكبر من نوعها لمعرفة تأثير الخضرة في المدن على حالة الجهاز التنفسي: «أن زراعة الأشجار بكثرة في الطرق الرئيسية يمكن أن يساعد في الحد من الآثار الخطيرة لدخان السيارات»[٣]، مما يتأكد معه تأثير التشجير والمناطق الخضراء على المجال الهوائي، وكيفية معالجته وتنقيته للهواء، «فقد أكّد الباحثون أنه يمكن للأشجار أن تزيل الملوثات من الهواء بشكل فعال»[٤]، وبالتالي إسهام هذا النظام في الحفاظ على النسل بطرق مختلفة.

> **قطع الأشجار دون وجود مصلحة، والتعدّي على المناطق الخضراء التي ينتفع بها الناس، هو في الحقيقة تعدٍّ على المال العام الذي ينتفع الناس به؛ وهو من أنواع الإفساد المنهي عنه بنصِّ القرآن**

٥-دور التشجير والتخضير في حفظ مقصِد المال

في الحث على غرس الشجر والنبات، تضمُّن لمصلحة الرفع من قيمة الأرض وثمنها، وهو عمل يخدم مقاصد الشريعة في إطار كلية المال لأنه يحقق تنمية مستدامة، ويرتبط بوسيلة تحقق منفعة لمالِك الأرض ومنفعة للمستفيدين من النظام عمومًا، فتزيين الشوارع والأماكن العامة بالشجر والنبات، يرفع من قيمة العقار المحاذي أو المقابل له، وهو أمر يُلحظ في كثير من التجزئات والتجمُّعات السكنية، لذلك تعتني بعض الجمعيات بأمر غرس الأشجار للانتفاع بها وبظلالها، وأيضًا لما تحققه من منافع على مستوى بنية العقار المادية.

كما أن غرس الشجر والنبات يفتح بابًا للتجارة بالبيع والشراء؛ يدل على ذلك المنابت والمشاتل التي تشتغل على تزويد البلديات والمحافظات وعموم الزارعين بالنبات والأشجار لغرسها، مما يحقق أجرًا ثابتًا وعملاً مُربحًا، فيه توسعة على الناس في أقواتهم، ولا تتحقق منافع التشجير بالأسواق التي يفتحها فقط، بل يُسهم هذا النظام في تحقيق منافع مالية كبيرة، ترتبط بالمواد التي تستخرج من الشجر؛ وأهمها الخشب، حيث يستخدم في صناعات مختلفة، ويفتح أبوابًا متنوعة للرزق، سواء في صناعة الأثاث، أو الأوراق والمطبوعات، وحصول التدفئة، والطاقة وتأمين الحرارة، وكذلك التجارة بالثمار والفواكه الناتجة من الأشجار، وكذلك ما يستخرج من الأشجار من مواد أخرى كالمطاط والزيوت والصمغ والأصباغ والمستحضرات والأدوية وغيرها، فإن فائدتها الاقتصادية عظيمة، حيث أصبحت بعض الدول حاليًا تتنافس في غرس أنوع معينة من الأشجار، لما يحققه تصدير منتجاتها للخارج من موارد مالية مهمة للدولة.

لذلك فقطع الأشجار عمومًا دون وجود مصلحة، أو التعدّي على المناطق الخضراء التي ينتفع بها الناس، هو في الحقيقة تعدٍّ على المال المتقوّم الذي ينتفع الناس به؛ ولكونه من أنواع الإفساد المنهي عنه بنصِّ القرآن ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وهو هنا عام يتناول كل ما على الأرض حتى النبات والشجر والدواب وغيرها، فالتعدِّي على الغابات والأشجار من شأنه إحداث الأضرار المادِّية والمعنوية، ولأنه يفوت مصالح كثيرة.

(١) دراسة: قد يتسبب تلوث الهواء في تقليل فرص الحمل، إعداد: نيكول ويستمان، موقع: popsciarabia.com، تاريخ النشر: ١٦ ديسمبر ٢٠١٨.
(٢) المرجع السابق، والمثبت من كلام «أودري جاسكينز» «باحثة في كلية تي إتش تشان للصحة العامة بجامعة هارفورد».
(٣) دراسة: زيادة الأشجار في المدن يحد من الأزمات الربوية، إعداد: رباب أحمد، موقع: al-ain.com، تاريخ النشر: ١٨ نوفمبر ٢٠١٧.
(٤) المرجع السابق.

ويمكن الإشارة، إلى أنَّ الانتفاع بالشجر والنبات، ينبغي أن يراعى فيه المحافظة على هذه الكلِّيات الشرعية، وتقديم الأولى حسب المصالح المتحققة؛ فالأشجار التي ينتفع بها الناس وتؤثر في حياتهم لا يجوز قطعها أو إتلافها، بينما يجوز قطع ما يحصل به الأذية للناس، ومفاسِده أعظم من منافعه؛ وقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (بينما رجلٍ يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق فأخَّره، فشكر الله له فغفر له)[١]، وفي مسند الإمام أحمد: أن شجرة كانت على طريق الناس كانت تؤذيهم، فأتاها رجل فعزلها عن طريق الناس قال أنس رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: (فلقد رأيته يتقلب في ظلها في الجنة)[٢].

فالتعدِّي على الغابات من شأنه إحداث الضرر المادِّي والمعنوي، فاقتلاع الأشجار قد يرتب فواتًا لمصلحة الانتفاع بالمال المترتب عن الثمار والمواد المستخرجة منها وعن الحماية التي ترتبها، لما ثبت أن الأشجار تحمي المحاصيل الزراعية ضد نشاط الرياح.

> **سبقت الشريعة الإسلامية التمدُّنَ المعاصر بقرون طويلة في الحث على الزرع والتشجير والعناية بالنبات والنهي عن قطعه دون هدف، وهذا مما يؤكد صلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان**

وخِتامًا..

فإنَّ العناية بالتشجير والتخضير، وسيلة مهمة لحفظ مقاصد الشريعة الإسلامية، وكلياتها الضرورية (الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال)، انطلاقًا من الآثار التي يرتبها زرع الأشجار وغرس النباتات، سواء تعلق الأمر بحماية البيئة وما يلحق ذلك من تأثير واضح على صحة الإنسان وسلامته الجسمية والعقلية، أو بما يتحقق من زراعة الشجر من فوائد هامة ونتائج نافعة للاقتصاد وللبنية المادية للعقارات المحيطة بها، حماية للمحصولات والمنتجات الزراعية؛ ليتأكَّد بالملموس أن عناية الإسلام بأصل المصلحة التي تتحصَّل من التشجير والتخضير حصلت قبل أن يعرفها تمدن اليوم، لذلك وجب سنُّ القوانين الخاصة بردع ومعاقبة كل تعدٍّ على الغابات والأشجار عمومًا.

ويبقى الارتباط بين الشجر والبشر ارتباطًا وثيقًا وعميقًا لا تفسره الدراسات والنظريات، بل يمتد إلى العقل الباطن واللاوعي؛ حيث يشعر الإنسان بالراحة والطمأنينة بجانب الخضرة والشجر، بل يمكننا أن نقول إن منشأ هذا الارتباط بدأ من اللحظة التي سكن فيها أبوانا (آدم وحواء) الجنة، وتنعما في ثمارها وأنهارها، ودخل ذلك في التكوين العميق للإنسان حتى صارت النفس البشرية تتوق للخضرة وتنعم بها وترتاح إليها.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢) ومسلم (١٩١٤).
(٢) أخرجه أحمد (١٢٥٧١).

أوانُ ذهابِ العِلم!

أ. محمد أمجد عبد الرزاق بيات (*)

العلماء ورثة الأنبياء، يُعلّمون الناس ويقودونهم بالوحي، ويردعونهم عن الانحراف والظلم والغلو، فوجودهم وقيامهم بدورهم أمان للمجتمع من الفتنة والهلاك، وبالمقابل فإنَّ في ذهابهم رواجًا للفتن وانتشارًا للظلم والبغي، لكن لماذا يحصل ذلك؟ وما الذي يؤدي إلى الفتن بذهابهم؟ هذه المقالة تتناول هذا الجانب ببعض التفصيل

مقدمة:

تمرُّ الأمة الإسلامية بأزمةٍ خطيرة قد تُودِي بأجيال من المسلمين إلى مجاهِل الضَّياع وأقبية التِّيْه، بخاصة أن هذه الأزمة هي مِن صُنع بعض المسلمين وإن اتخذوا لأنفسهم صفة باحث، أو مفكِّر، أو كاتب؛ فالجمهور -الذي يتلقَّى ويتأثّر ويُسلِّم- يظنُّ أنّ كلَّ متحدِّث من أبناء الإسلام هو ناطقٌ رسميٌّ باسمِه!

ومن هنا عظُم الخطْب، فحُمِّلَ الإسلام -أوّلاً- تبعة هذه الأخطاء والشُّذوذات، وحُمِّل المسلمون -ثانيًا وسيَتحمّلون طويلاً- نتيجة انعكاسات تلك الآراء والمناهج والأفكار في تكوين عقليَّتهم وتصورهم للمفاهيم الإسلاميّة، وارتدادها على بُنية المجتمع ومسيرة الدَّعوة في العاجل والآجل؛ ذلك أن كثيرًا من تلك الأفكار والطروحات تُمثِّل دعوَةً لا إلى الخروج على القِيَم فحسب، ولكن على مبادئ الإسلام ومنهجِه!

وكان لضعف العلم وغلبة الجهل في العصور المتأخرة، وتصدُّر -أو تصدير- مَن ليس أهلاً، دور كبير في بروز هذه الظاهرة واستفحالها. ولولا أن الله سبحانه قد تكفَّل بحفظ هذا الدِّين، لجرى عليه ما جرى على غيره من تحريف وتبديل.

وفي خطر المحرِّفين بالتأويلات الفاسدة والحجج الباطلة على الدِّين يقول الإمام ابن القيم: «لَمَّا سَلَّط المُحرِّفون التأويلات الباطلة على نصوص الشرع: فسد الدِّينُ فسادًا؛ لولا أنَّ الله سبحانه تكفَّل

(*) ماجستير في الفقه، باحث شرعي ومدرس.

بحفظه وأقام له حرسًا وَكَلَهُم بحمايته من تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين؛ لجرى عليه ما جرى على الأديان السَّالفة، ولكن الله برحمته وعنايته بهذه الأمة يَبعثُ لها عند دُرُوسِ السُّنة وظهور البدعة مَن يُجدِّد لها دينها، ولا يزال يَغرِس في دينه غرسًا يستعملهم فيه عِلمًا وعَمَلاً»[١].

نقص العِلم في الآثار النبويَّة:

لقد نبَّه النبيُّ ﷺ -في غير ما حديث- إلى نُقصان العلم ورفعه، الذي سيكون في هذه الأمة، خصوصًا في أجيالها المتأخرة. كما في حديث زياد بن لبيد ﷺ قال: (ذكرَ النبيُّ ﷺ شيئًا، فقال: وذاكَ عند أوان ذهاب العِلم! قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهبُ العلمُ، ونحنُ نقرأ القرآن ونُقرئُه أبناءنا، ويُقرئه أبناؤنا أبناءَهُم إلى يوم القيامة؟ قال: ثكلتكَ أمُّك يا ابن أم لبيد! إن كنتُ لأراك من أفقَهِ رجلٍ بالمدينة، أَوَليسَ هذه اليهود والنصارى يَقرؤونَ التوراة والإنجيل لا يَنتفعونَ مما فيهما بشيءٍ؟!)[٢].

وفي حديث أنس ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: (من أشراط الساعة: أن يُرفع العِلم ويثبُت الجهل)[٣]، وعن ابن مسعود وأبي موسى قالا: قال النبيُّ ﷺ: (إنَّ بين يدي الساعة لَأيامًا يَنزلُ فيها الجهلُ ويُرفع فيها العلمُ، ويكثُرُ فيها الهَرْجُ، والهَرْجُ القَتلُ)[٤].

> **رفع العلم المذكور في الأحاديث النبوية يعني رفع الفقه والفهم، فالعلم ليس مجرَّد القراءة وإحسانها والحفظ وإتقانه، ولكنه حُسن الفهم ودقة الاستنباط وإحكام القواعد وضبط منهج الاستدلال**

دلالات خطيرة:

دلَّ حديث زياد ﷺ على أنَّ العلم الذي قصد النبيُّ ﷺ أنه يُرفع، ليس ذهاب نصوص القرآن والسُّنة، ولكنه شيء أعمق من ذلك وأخطر! إنه الفقه والفهم، فالعلم ليس مجرَّد القراءة وإحسانها والحفظ وإتقانه، ولكنه حُسن الفهم ودقة الاستنباط وإحكام القواعد وضبط منهج الاستدلال.

ودلَّ حديث ابن مسعود وأبي موسى ﷺ على أنّ كثرة القتل يستتبع نزول الجهل، وأنَّ العلم -الذي هو الفقه وفق المنهج الصَّحيح في الفهم- تكون بركته في درء الفتن وعموم الأمن، وقطع الطريق على المتعالمين الذين فسدت أفهامهم، تبعًا لأهوائهم وجهالاتهم.

> **بركة العلم تكون في درء الفتن وعموم الأمن، وقطع الطريق على المتعالمين الذين فسدت أفهامهم، تبعًا لأهوائهم وجهالاتهم**

رفْع العِلم بموت العلماء:

لا يخفى أن العلم يُحفظ بتدوينه كتابة، ووجود حملته العالمين به: العلماء، وفي الحديث قال ﷺ: (العلماءُ ورثةُ الأنبياء)[٥]، فالعلماء هم الذين حملوا علم الأنبياء وتوارثوه وورَّثوه. والوراثة تعني وراثة الحفظ والفهم. والحفظ كما يحصل بالكتب تدوينًا، كذلك يحصل بالصُّدور ضبطًا، أمّا الفهم فشيءٌ زائد عن الحفظ لا يؤخذ إلا بالتلقِّي عن أهله والشهادة منهم له بأنه من أهله.

وقد دلَّ حديث زياد بن لبيد ﷺ أنَّ المقصود بالعلم الذي حذَّر الرسول ﷺ من فقده ليس مجرَّد الحفظ، بل الفهم وفق قواعد وأصول، وهو ما يصطلح عليه: المنهج. ومن هنا فإنّ موت حَمَلة العلم (العلماء) إيذانٌ بنقصه ورفعه، وهذا ما دلّت عليه الآثار، كما جاء عن ابن عباس ﷺ قال: أتدرون ما ذهابُ العلم؟ قُلنا: لا، قال: «ذهابُ العلماء»[٦]، وعن ابن مسعود ﷺ كذلك: «لا يأتي عليكم عامٌ إلا والذي بعده شرٌّ منه، ولا أعني عامًا أخصب من عام ولا أمطرَ من عام، ولكن ذهابُ خياركم وعلمائكم، ثم يَحدُثُ قومٌ يقيسون الأمور برأيهم،

(١) الصواعق المرسلة (٢/٤٠٠).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٨)، وأحمد (١٧٤٧٣) وهو حديثٌ صحيح.
(٣) متفقٌ عليه: أخرجه البخاري (٥٢٣١)، ومسلم (٢٦٧١).
(٤) متفقٌ عليه: أخرجه البخاري (٧٠٦٢)، ومسلم (٢٦٧٢).
(٥) أخرجه أبو داوود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).
(٦) أخرجه أحمد (١٩٤٦).

فيُهدم الإسلام ويُثلَم»[١]. ولما سُئل سعيد بن جُبير رحمه الله ما علامةُ هلاكِ الناس؟ قال: «إذا هلَكَ علماؤُهُم»[٢].

قال الحافظ الذهبي رحمه الله: «أما اليوم فما بقي من العلوم القليلةِ إلا القليل، في أناسٍ قليل!»[٣]. وقد كانت الكتب والمؤلفات في عصره متوافرة محفوظة، والمكتبات كثيرة عامرة، ولكنهم لم يكونوا يعُدّون وجودها هو العلم، بل وجود حملتها وهم العلماء!

> **اشتباه العالم بغير العالم يعني ضياع المنهج، واختلال ميزان الفهم. وعندئذٍ لا تسأل عن الفوضى وانتشار الفتن!**

خطورة موت العلماء:

لا شك أنَّ ذهاب العلم مُقترنٌ برواج الفتن، وإنَّ الالتحام بالعلماء عصمةٌ للأمة من الضلال، فالعلماء كسفينة نوح، من تخلَّف عنها كان من المُغرقين. قال الإمام ابن القيّم رحمه الله: «فقهاء الإسلام ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام: الذين خُصُّوا باستنباط الأحكام، وعُنوا بضبط قواعد الحلال والحرام؛ فهم في الأرض بمنزلة النُّجوم في السَّماء، بهم يهتدي الحَيران في الظَّلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرضُ عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنصّ الكتاب؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]؛ قال ابن عباس في إحدى الروايتين عنه، وجابر بن عبد الله، والحسن البصري، وأبو العالية، وعطاء بن أبي رباح، والضحَّاك، ومجاهد، في إحدى الروايتين عنه: أولو الأمر: هم العلماء، وهو إحدى الروايتين عن أحمد»[٤].

وعن ابن عباس ﷺ أنّه قال: «لا يزال عالمٌ يموت، وأثرٌ للحقِّ يَدْرُس، حتى يكثُر أهل الجهل، وقد ذهب أهلُ العلم، فيعملونَ بالجهلِ، ويدينون بغير الحق، ويضلُّون عن سواء السبيل»[٥]. وكان الزُّهري رحمه الله يقول: «كان من مضى من علمائنا يقول: الاعتصامُ بالسُّنة نجاةٌ، والعلم يُقبَض سريعًا، فنَعْشُ العلم ثباتُ الدِّين والدُّنيا، وذهاب العلماء ذهابُ ذلك كلِّه»[٦].

اشتباه العالِم بغيره:

اشتباه العالم بغير العالم يعني ضياع المنهج، واختلال ميزان الفهم. وعندئذٍ لا تسأل عن الفوضى وانتشار الفتن! يدلُّ على ذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ اللهَ لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعهُ من العباد، ولكن يقبضُ العلمَ بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبقِ عالمًا اتخذَ الناسُ رؤوسًا جهَّالاً فسُئلوا فأفتوا بغَير علم؛ فضَلُّوا وأضلُّوا)[٧]. وفي رواية للبخاري: (فيفتون برأيهم!).

فإذا مات العلماء وتصدَّر أشباههم وأخذوا موقعهم، وأحسن الناسُ الظنَّ بهم وسألوهم؛ حدثت الفوضى ووقع الانحراف، واشتدَّت الكُربة وعظُمت المحنة بالرؤوس الجهَّال، وقد سمَّاهم النبيُّ ﷺ كما في حديث أبي أميَّة الجُمَحي ﷺ: الأصاغِر! فقال: (إنَّ من أشراطِ السَّاعة: أن يُلتمَسَ العلمُ عند الأصاغِر!)[٨].

وقال ابن مسعود ﷺ: «لا يزالُ الناسُ صالحين متماسكين، ما أتاهُم العلمُ من أصحاب محمدٍ ﷺ ومن أكابرهم، فإذا أتاهُم من أصاغِرهم هَلَكُوا!»[٩].

---

(١) أخرجه ابن وضّاح في البدع والنهي عنها (٢٣٢).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٢٠٦)، والدارمي في سننه (٢٤٧).
(٣) وهذا يشبه ما قاله الشعبي رحمه الله: «لا تقومُ الساعةُ حتى يصيرَ العلمُ جهلًا، والجهلُ علمًا».
(٤) إعلام الموقعين (٢/١٤-١٥).
(٥) جامع بيان العلم (١/ ٦٠٣) رقم (١٠٣٩).
(٦) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٣٦).
(٧) متفق عليه: البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).
(٨) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦١) والطبراني وغيرهما. قال ابن عبد البر: «ذكر أبو عبيد في تأويل هذا الخبر عن ابن المبارك أنه كان يذهبُ بالأصاغِرِ إلى أهل البدع، ولا يذهب إلى السِّنِّ، قال أبو عبيد: وهذا وجهٌ».
(٩) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم رقم (١٠٥٧). وقال أيضًا: «إنكم لن تزالوا بخير ما دام العلمُ في كباركم، فإذا كان العلم في صغاركم سفَّهَ الصغيرُ الكبير». جامع بيان العلم رقم (١٠٥٩).

مراتب الناس في العلم وواجباتهم

فهذا الأثر يدل على أنَّ العلم لا يؤخذ من المجاهيل ومن لا يُعرف بطلبه، وأنَّ هَلَكَةَ الناس تكون إذا سلَّموا قيادهم لأمثالهم.

> **«أكثر ما يُفسِد الدنيا: نصفُ متكلِّم، ونصف متفقِّه، ونصف متطبِّب، ونصف نحْوي! هذا يُفسد الأديان، وهذا يُفسد البُلدان، وهذا يُفسد الأبدان، وهذا يُفسد اللِّسان!»**
>
> ابن تيمية

ظاهرة أنصاف العلماء:

وتعتبر أحد وجوه مسألة اشتباه العالم بغيره، فإذا أُخذ العلم عن غير متأهِّل، أو استُفتيَ مَن لم تكتمل عنده أدوات النظر والاجتهاد؛ وقع المحظور، ومن درر الإمام الشافعي رحمه الله قولُه: «إذا تصدَّر الحَدَثُ، فاتهُ عِلمٌ كثير»[(١)].

وإلى مثل هؤلاء يشير كلام العلامة الشوكاني رحمه الله حين قسم الناسَ إلى ثلاث طبقات بقوله: «النّاسُ على طبقاتٍ ثلاث:

» **فالطبقة العالية:** العلماء الأكابر، وهم يَعرفون الحقَّ والباطل، وإن اختلفوا لم ينشأ عن اختلافهم الفتن، لعلمهم بما عند بعضهم بعضًا.

» **والطبقة السَّافلة**[(٢)]: عامّةٌ على الفطرة لا ينفرون عن الحق، وهم أتباع من يقتدون به، إن كان محقًّا كانوا مثله، وإن كان مُبْطِلاً كانوا كذلك.

» **والطبقة المتوسّطة:** هي منشأُ الشَّرّ وأصلُ الفِتَن النّاشئة في الدِّين، وهم الذين لم يُمْعِنوا في العلم حتَّى يرتقوا إلى رُتبة الطّبقة الأولى، ولا تركوه حتَّى يكونوا من أهل الطّبقة السَّافلة، فإنَّهم إذا رَأَوْا أحدًا من أهل الطَّبقة العليا يقول ما لا يعرفونَه مما يُخالف عقائدهم التي أوقعهم فيها القُصورُ؛ فَوَّقُوا إليه سهامَ التقريع، ونسبوه إلى كلِّ قولٍ شنيع، وغيّروا فِطَرَ أهل الطّبقة السفلى عن قَبُول الحق بتمويهاتٍ باطلةٍ، فعند ذلك تقوم الفتنُ الدينيَّة على ساق»[(٣)].

(١) الفوائد والأخبار، لابن حمكان، ص (١٣٩)، وصفة الصفوة، لابن الجوزي (٤٣٥/١).
(٢) المقصود بها: الطبقة الدنيا.
(٣) البدر الطالع، للشوكاني (٤٧٣/١).

وهؤلاء الذين عناهم ابن تيميَّة رحمه الله بقوله: «أكثر ما يُفسِد الدنيا: نصفُ متكلِّم، ونصف متفقِّه، ونصف متطبِّب، ونصف نحْوي! هذا يُفسد الأديان، وهذا يُفسد البُلدان، وهذا يُفسد الأبدان، وهذا يُفسد اللِّسان!»[١].

فخطورة هذا الصِّنف كونه ثنى الرُّكب أمام العلماء، لكنه لم يستكمل آلة طلب العلم، ولم يحرِّر القواعد، ولم يشهد له أهل الصَّنعة الأكابر. فحالهم كما قال الذَّهبي: «فخَلَفَ من بعدهم خلفٌ بانَ نقصُهُم في العِلْم والعَمَل. وتلاهُم قومٌ انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يُتقنوا منه سوى نزرٍ يسير، أَوْهَموا بِهِ أنهم عُلماء فُضلاء!»[٢].

اشتباه أهل البدع والأهواء بعُلماء أهل السُّنة:

فالخوارج - مثلاً - أهل عبادة واجتهاد في الطاعة، لكنَّهم لم يفقهوا حقيقة العلم ولم يطلبوه على وجهه، وقد ذَكَرَت كتبُ التراجم بعضَ رؤوس البدع من المعتزلة وغيرهم بالزهد والعبادة. فمثل هؤلاء قد يَشتبه حالهم على الناس فيُظنُّ بهم العلم، وقد فطن الإمام الآجُرّي رحمه الله لهذا الأمر فقال: «لا ينبغي لمن رأى اجتهاد خارجيٍّ .. أن يغترَّ بقراءته للقرآن، ولا بطول قيامه في الصلاة، ولا بدوام صيامه، ولا بحُسْن ألفاظه في العلم، إذا كان مذهبه مذهب الخوارج»[٣].

اشتباه الخطيب، والواعِظ، والمفكِّر بالعالم:

لا يلزم من كون الشخص خطيبًا مفوَّهًا، أو واعظًا بارعًا، أن يكون عالمًا، فكم من واعظٍ يأخذ بقلوب الناس بحسن حديثه وجميل بيانه، وكم من مفكِّر سارت الركبان بكتبه ومقالاته؛ ليس في كلامهم إلَّا التنميق والزخرفة، وهم أبعد ما يكونون عن التحقيق والعلم!

قال ابن مسعود ﷺ: «إنكم في زمانٍ كثيرٌ علماؤه، قليلٌ خطباؤه ... وإن من ورائكم زمانًا كثير خطباؤه، قليلٌ علماؤه»[٤]. وقد سألَ حمَّادُ بن زيد أيوب السختياني رحمهما الله: العلمُ اليَوم أكثر أَو فِيما تقدَّم؟ فقال: «الكلام اليوم أكثر، والعلمُ فيما تقدَّم أكثر». قال ابن القيِّم معلِّقًا: «فَفرَّقَ هذا الراسخُ بين العلم والكلام! فالكتبُ كثيرَة جدًّا، والكلام والجدال والمقدَّرات الذهنيَّة كثيرة، والعِلمُ بمعزلٍ عن أكثَرها»[٥].

مع التنبيه أنَّ هذا لا يعني كل الخطباء أو الوعّاظ أو المفكّرين؛ بل قد يكون الواحد منهم من أئمة العلم والدِّين، ولكن اقتضى التنبيه لاشتباه الحال عند المتأخرين.

لا يلزم من كون الشخص خطيبًا أو واعظًا أن يكون عالمًا، فكم من واعظٍ يأخذ بالقلوب بحسن الحديث والبيان، وكم من مفكّرٍ سارت الركبان بكتبه ومقالاته، وهم أبعد ما يكونون عن التحقيق والعلم!

ختامًا:

إنَّ الواقع الفكري والعقائدي للأمة الإسلامية اليوم، يؤكد أننا في حاجة ماسَّة إلى حركة إحياء شاملة، تجدد للأمة أمر دينها، وتقوِّم ما اعوجَّ من سلوكها، ولا بد لهذه الحركة في طريقها للتغيير من الالتفاف الصادق حول العلماء الربانيين الناصحين، ومن يسلك سبيلهم من الطلبة والدعاة والمصلحين. وأن يحذروا من أولئك المفتونين، الذين يُلبِّسون على الناس دينهم بإثارة الشبهات والانتصار للأقوال المهجورة والمسائل الشاذَّة والمخترعة.

وهنا لا بد أن نلفت الأنظار إلى ما يقوم به بعض من يزعم النقد والتصحيح، ولكنه يشتط في الرَّد، ولا ينضبط بأدب الخلاف ولا يراعي مراتب المسائل، فينقد نقدًا لاذِعًا حتى فيما يسوغ فيه الخلاف ويشتطُّ ويبالغ!

وهذا الأسلوب عند البعض يُنبئ عن خطرٍ عظيم وشر مستطير، فالرَّد وبيان الحق إن لم يقُمْ على ضوابطَ متينة وفْقَ شروطٍ رصينة؛ أفضى إلى مفاسد عظيمة. فكم اتهم من طلبة علم ومشايخ وعلماء ورُموا بالبدعة والانحراف لعدم مراعاة الأسلوب العلمي والضوابط وأدب الخلاف.

نسأل اللهَ سبحانه أن يحفظ علينا ديننا، ويلهمنا رشدنا، وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

(١) مجموع الفتاوى (١١٨/٥-١١٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٥٣/٧).
(٣) الشريعة (٣٤٥/١).
(٤) الزّهد، لهنّاد (٣٥٥/٢).
(٥) الفوائد (ص١٠٤).

تزكية

القرآن الكريم.. رسالة الله المتجدِّدة

أ. كريمة دوز (*)

تمتاز أمة الإسلام بالقرآن الكريم، وجدير بأمة الإسلام أن تعتني بكتابها، وأن تفهمه وتستخرج أسراره، وأن تعمل به وتطبقه في واقعها، حتى يُحدث فيها فرقاً بقدر تميّزه عن غيره من الكتب، لكن العناية بكتاب الله لها طرق وأحوال ومفاتيح، فما هي هذه الأحوال وما هي مفاتيح الاستفادة من هذا الكتاب العظيم؟

مدخل:

يتفتق فلق الصبح فتتفتق معه الآمال والأحلام، وكلٌّ يسلك دربه ووجهته، من سابق إلى الخيرات طامح للمعالي، إلى مَن مَالَ عن المقصد الأسنى فتقطّعت به السبل، وصار يتخبَّط في دُروب الحياة، لاهيًا عن عمارة الروح، منغمسًا في تشييد البُنيان وتحصيل مطامح عالم الشهادة، مكبلاً بقيود المادة وسطوتها، شاردًا عن روح غايته، لاهثًا وراء سراب الدنيا، مغترًا بزخرفها، وما إن يقبل على ليله ويختلي وحيدًا في ظلمته، حتى تستوحش روحه الظمأى في غياهب الجب باحثةً عن منفذ للخروج.

لكن، أنّى لهذه الروح أن ترتوي وهي مدبرة عن كلام ربها، مقصرة في اغتنام الأوقات لتنهل بركات القرآن؟ فأين أنت أيها المرسَل إليه مِن تلقّي آيات المرسِل سبحانه وتجديد القلب للأخذ من المعين الصافي الذي أنزل بالخير والصلاح إليك؟ «أوَما تُعَيِّر نفسكَ في الحرمان عن دُررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها؟ أوما بَلغك أن القرآن هو البحر المحيط؟ ومنه يتشعَّب علمُ الأوَّلين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارُها وجداولُها؟»[1].

> **أَقبِل أيها المؤمن على صحائف الرحمة، وانفُض عن قلبك ومصحفك غبار الغفلة، وجدِّد عهدك بكتاب ربك، واقرأ القرآن وكأنه أنزل عليك، وارتق في قراءة كلماته وكأن روحك تلقّفها للوهلة الأولى**

(*) دكتوراه في العقيدة والفقه ومقارنة الأديان.

(1) جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي، ص (٤٩)، (بتصرف).

لا تنقضي عجائبه:

القرآن الكريم هو رسالة الله المتجدّدة لك أيها الإنسان، فهل سيكون لك معه أحوال ومقامات تمضي بك إلى روضة أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، أم أنك ستبقى في الليل البهيم دون مرقاة لروحك إلى مِعراج الأنوار الموصول بالتبصر في لآلئ القرآن؟

فهيا! أقبل على صحائف الرحمة، وانفض عن قلبك ومصحفك غبار الغفلة، جدِّد عهدك بكتاب ربك، واقرأ القرآن وكأنه أنزل عليك، وارتق في قراءة كلماته وكأن روحك تلقفها للوهلة الأولى، واعلم أن كلام الله فائض بالمعاني، تتفتق آياته نورًا لتنير بصائر العباد، ويجد فيه الشخص إجابات عن كل تساؤلاته، وبلسمًا لكل حالاته كأنه أنزل خصيصًا لأجله، فيتجدَّد له بتجدُّد أحواله، ففيه من عجائب الأسرار ما يُدْهِش العقول، وما تَسْكُن له قلوب الحيارى، وتستريح في جنانه نفوس أتعبتها مشاغل الدنيا.

فهذا نفرٌ من الجن يُذعن لربه إيمانًا وتسليمًا لما تلقى سمعه أنوار الوحي، يقول الحق سبحانه مُبينًا عظمة هذا المشهد: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢]، فلما فرغوا من الاستماع إليه وعرفوا الحقّ، لم يملكوا إلا أن ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

إنها عجائب القرآن ولطائف كلام المنان الذي إذا طرق القلب الموقن تجلت معالم الهداية في الباطن قبل الظاهر، وأي هداية؟ إنها هداية الرُشد؛ فهو يهدي لأقوم الطريقة ويرشد لخير الحياة، ويسلك بصاحبه مسلك أهل البصائر، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

جوائز المجتهدين:

فيا بشرى من لزم كتاب ربه، وعمل بمحكم تنزيله، ورتله ترتيل الباحث عن الحق، فكان المنارة التي يهتدي بها لمعرفة ما شوش على قلبه وضيق عيشه، وكانت آياته البلسم الذي يشفي أحزانه ويرتقي بروحه في سماء الذاكرين، والقوة التي تعلو بها همته، فيتدارس ما فيه من معانٍ مجددًا روح الإيمان في قلبه، ليعلم أن حياة الروح لا تستقيم إلا بوصل الفؤاد بالقرآن، وأن طالب الهدى فيه سيقع على مطلبه، قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

فالمقصد الأسمى من هذا الكتاب الهادي: إظهار الحق وبيانه في الآفاق، ولا شك أن من ذهب إليه وغايته الهدى اهتدى، ومن تلاه حق تلاوته بورك له في فهمه، ومن سلك فيه مسلك التدبر خرج بكنوز وجواهر تكون زاده في فهم ذاته وواقعه، فختمتك الأولى وأنت تبحث وتتدبر في معانيه ستكون حتمًا مختلفة عن ختمتك الثانية، وهكذا يتوسع فهمك له بتوسع مداركك، ووثوق عهدك به، حتى تمضي كلماته على لسانك وجوارحك، وهذا حال من صحب القرآن وعاش ينظر في مراد آياته حتى يتحقق له التبصر والتدبر.

> **المقصد الأسمى من القرآن إظهار الحق وبيانه في الآفاق، ولا شك أن من ذهب إليه وغايته الهدى اهتدى، ومن تلاه حق تلاوته بورك له في فهمه، ومن سلك فيه مسلك التدبر خرج بكنوز وجواهر تكون زاده في فهم ذاته وواقعه**

من أحوال الصالحين مع القرآن:

ولو نظرنا في حال الصالحين لاستوقفتنا أحوالهم مع القرآن، فمنهم من كان يقيم ليله بآية واحدة ويكررها تكرار تأمل وتدبر، فهذا حبيبنا ﷺ كما يروي عنه أبو ذر ﷺ، أنه ﷺ قرأ هذه الآية فردَّدها حتى أصبح: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][1]، أما عند سماعهم ﷺ لآياته فكانت تقشعرُّ جلودهم كما وصفهم الرحمن في كتابه، يقول الحق جل ثناؤه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، لذلك لما سُئلت أسماء بنت أبي بكر ﷺ: كيف كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرؤوا القرآن؟ قالت: «كانوا كما نَعَتَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ: تدمعُ أعينهم وتقشعرُّ جلودهم»[2].

(١) أخرجه أحمد (٢١٣٨٨).
(٢) أخرجه سعيد بن منصور (٩٥).

وكانوا ﷺ إذا اجتمعوا يتلون كتاب الله فيتلذّذون بسماعه من بعضهم، وتسمو قلوبهم، فيرتقون في مدارج السالكين ومنازل السائرين، حتى تحلق أرواحهم في رحاب القرآن وحدائق الإيمان.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى الأشعري ﷺ: يا أبا موسى ذكِّرنا ربَّنا. فيقرأ وهم يسمعون ويبكون. وكان أصحاب محمد ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم أن يقرأ القرآن والباقي يستمعون،... ولهذا السَّماع من المواجيد العظيمة والأذواق الكريمة ومزيد المعارف والأحوال الجسيمة ما لا يتَّسع له خطابٌ ولا يحويه كتاب، كما أنَّ في تدبُر القرآن وتفهّمه من مزيد العلم والإيمان ما لا يحيط به بيان»[1].

وكيف لا يكون هذا حالهم، والحقُّ سبحانه يصف هذا القرآن بأنه لو أنزل على جبل لتصدَّع من خشية الله؟! قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

فهذا الجبل الأصمُّ يخشع لكلام الله تعالى ويتأثَّر به، وأنت قابعٌ تحت سلطان هواك، وسلطة قلبك القاسي، تقف مترددًا دون أن تدخل في رياض القرآن وتلمس نسائمه وتترقى في فهم معانيه، وتنظر في بصائره، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وإذا كان البصر اسمًا للإدراك التام الكامل الحاصل بالعين، فالبصيرة اسم للإدراك التام الحاصل في القلب، ولما كانت الآيات أسبابًا لحصول البصائر سميت بالبصائر[2]، فهل لك أن تتدبر في آياته فتترقى في مدارج المتبصرين؟

> **حين يستيقن القلب ويستوثق يعرف طريقه فلا يتلجلج ولا يتلعثم ولا يحيد، وعندئذ يبدو له الطريق واضحًا والأفق منيرًا والغاية محددة والنهج مستقيمًا، وعندئذ يصبح هذا القرآن نورًا وهدى ورحمة**
> سيد قطب

ما هو المفتاح؟

لكن أتدري كيف يتلقف قلبك بصائر القرآن فتهتدي؟ الجواب كله في هذا الكلام المعجز الذي يقدم لك وصفة الاهتداء ببصائر القرآن في كلمة واحدة، إنها اليقين، يقول جل علاه: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

فوصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمِّق معنى الهداية فيه والإنارة، فهو بذاته بصائر كاشفة، وهو بذاته هدى، لكن هذا كله يتوقف على اليقين، يتوقف على الثقة التي لا يخامرها شك ولا يخالطها قلق ولا تتسرب إليها ريبة، وحين يستيقن القلب ويستوثق يعرف طريقه فلا يتلجلج ولا يتلعثم ولا يحيد، وعندئذ يبدو له الطريق واضحًا والأفق منيرًا والغاية محددة والنهج مستقيمًا، وعندئذ يصبح هذا القرآن نورًا وهدى ورحمة بهذا اليقين[3].

فاليقين إذن سلاحك في معركة الشيطان، وباب وصولك لفهم بصائر القرآن، الكتاب الذي يتجدد بتجدد الأفهام، فأقبل عليه إقبال الساعي إلى مولاه، واعقد قلبك به لتحصيل تمام الأنس به.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٨٠-٨١).
(٢) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، (١٣/١٠٤-١٠٥) بتصرف.
(٣) ينظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب (٥/٣٢٢٩).

قراءة في كتاب: عبقرية الإمام الشافعي، لمشاري بن سعد الشثري

أ. مهند تركي الدعفيس (*)

الإمام الشافعي شخصية مركزية في التاريخ العلمي الإسلامي، فهو ابن مدرسة الحديث وواضع علم أصول الفقه، وصاحب القدح المعلى في الفقه والأدب، اتصل بتلاميذ أبي حنيفة وتتلمذ على مالك وتتلمذ عليه أحمد بن حنبل، فكان حلقة وصل بحق بين أهل الحديث وأهل الرأي، بل بين المذاهب الفقهية المعروفة، فما سر شخصيته المحورية؟ وهل يمكننا الوقوف على شيء من عبقريته؟ هذا ما تبينه هذه القراءة

لا ينقضي تعجب قارئ كتاب عبقرية الإمام الشافعي من أمرين:

الأول: عبقرية الإمام الشافعي رحمه الله، وتعدد نواحيها ومبتكراتها.

الثاني: الجهد الموفق الذي بذله مؤلفه الشيخ مشاري الشثري في تأليف الكتاب وحسن رصده للجوانب التي شكلت ملامح عبقرية هذا الإمام بطريقة غير مألوفة، فهو كتاب عبقري في عبقرية الشافعي[١].

وصف الكتاب:

الكتاب من إصدار مركز البيان للبحوث والدراسات، يقع في ٢٨٤ صفحة، وصدرت الطبعة الثانية منه في محرم سنة ١٤٤١هـ. وقد تولّدت فكرة الكتاب في ذهن المؤلف بعد تتبُّعه لكثير من الكتب حول حياة الشافعي ومنهجه وأقواله وسيرته.

أقسام الكتاب:

سلك المؤلف في النظر لسيرة الشافعي جهة التأثُّر والتأثير فقسم الكتاب إلى قسمين[٢]:

(*) ماجستير في الفقه وأصوله، داعية ومدرس.

(١) برنامج الخزانة مع الشيخ الكتبي عبد الله بن سالم البطاطي.

(٢) المرجع السابق.

* القسم الأول: (المدد): ويعني تأثر الشافعي بغيره أثناء نبوغه، وفصل فيه الحديث عن تكوينه الشخصي والعلمي الذي أوصله إلى ما هو عليه.
* القسم الثاني: (المداد): ويعني التأثير النوعي للشافعي في محيطه العلمي منهجًا وتأليفًا.

أهمية الكتاب ومقصوده:

تولدت فكرة الكتاب في ذهن المؤلف بعد تتبعه لكثير من الكتب حول حياة الشافعي ومنهجه وأقواله، وليس المقصود بالكتاب ترجمة الشافعي رحمه الله، وإنّما المقصود التركيز على الجوانب التي ميّزت الشافعي وجعلت منه فقيهًا عبقريًا لم يُعرف له مثيل، فالمقصود هنا تقريب دعائم العبقرية متمثلة في شخص الإمام الشافعي.

وتكمن أهمية الكتاب في أنّ البيئة العلمية المعاصرة أحوج ما تكون لطلاب علم لهم القدرة على الإبداع والابتكار؛ فيرون في الإمام الشافعي وتكوينه العلمي ما يحفّزهم على ذلك.

مسارات النظر في العبقرية:

من أراد أن ينظر في العبقرية العلمية وما يتصل بها يجد نفسه أمام مسارين:

» مسار النظر من زاوية العلوم والمعارف والنظريات والأفكار، وما فيها من إبداع وابتكار، وينتقل بعدها للحديث عن تاريخ هذه العلوم وأطوارها وأعلامها.

» مسار النظر من زاوية الأعلام الذين كان لهم إسهام في الدفع بعجلة تلك العلوم، ثم ينفذ من خلالهم إلى النظر في تلك العلوم وبناها المعرفية.

وقد سلك المؤلف المسار الثاني نظرًا لما يتضمنه هذا المسار من الاطلاع على مواقع التأثُّر والتأثير في تكون تلك العلوم وتطورها، بما في ذلك من معالجة للظرف العلمي التاريخي الذي تكونت فيه عقول الأعلام.

> **الحديث عن الشافعي ليس حديثًا عن فردٍ فحسب، وإنّما عن حقبةٍ ثريةٍ من تراثنا العلمي، فهو علامةٌ فارقةٌ في التاريخ الفقهي، فمشروع الشافعي المعرفي مشروع مراجعة للمدارس الفقهية في زمانه**

مثلث العبقرية:

من خلال التتبع التاريخي لعبقرية الأعلام يحدد المؤلف أمورًا تشكل أسس العبقرية وهي:

١. القابلية والاستعداد الفطري.
٢. اتساع الحصيلة المعرفية والحذق فيها.
٣. القدرة على التأثير النوعي[١].

وهذه الثلاث قد اجتمعت في الشافعي على أتم وجه.

لماذا اختيار الشافعي للحديث عن العبقرية:

يعلل المؤلف اختياره الإمام الشافعي بعدة أسباب أهمها:

١. الشافعي أفسح الطريق للحديث عن عبقريته؛ لاجتماع أسس العبقرية فيه ووفرة إنتاجه العلمي بخلاف بقية الأئمة.
٢. الحديث عن الشافعي ليس حديثًا عن فرد فحسب، وإنّما عن حقبة ثرية من تراثنا العلمي، فهو علامةٌ فارقةٌ في التاريخ الفقهي، فمشروع الشافعي المعرفي مشروع مراجعة للمدارس الفقهية في زمانه.
٣. الحديث عن الشافعي حديث مستلذٌ لأنه من رجال الكمال متعدّد الجوانب.

جغرافيا العبقرية.

عني المؤلف بها لرسم خارطة تنقلات الشافعي وظرفه الزمني الذي مكنه من الاستفادة من مختلف المدارس الفقهية المنتشرة في عصره، وفي الصفحة التالية توضيح ذلك.

القسم الأول - دعائم العبقرية (المدد):

طليعة العبقرية:

لكل عبقرية نشأة فريدة ونبوغ مبكر، وهذا النبوغ من أخص دعائم العبقرية لأنه يتيح للعالم تحقيق عدة فوائد كالقدرة على إنضاج المعرفة في زمن كاف ومعاودة النظر في المشكلات التي تعرض له مرة بعد مرة وصولاً إلى المعرفة المنشودة.

وكل ذلك تحقق في الشافعي مبكرًا، فمن إشراقة نبوغه:

(١) يقصد المؤلف بالتأثير النوعي أن يكون التأثير على مستوى آليات النظر والمعالجة لا على مستوى العرض والنتائج المحصلة.

جغرافيا تنقلات الإمام الشافعي

١. حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، والموطأ وهو ابن ثلاث عشرة سنة.

٢. شُهد له أنّه أهل للفتوى وله خمس عشرة سنة فقط.

٣. قول الأصمعي: «صححت أشعار الهُذَليين على شاب من قريش بمكة يقال له: محمد بن إدريس الشافعي»، وكان بينهما خمس وعشرون سنة.

٤. لما كتب الرسالةَ لابن مهدي كان الشافعي شابًا، وكان عبد الرحمن بن مهدي يكبره بخمس عشرة سنة.

مشروع العبقرية:

كان النبوغ المبكر لا سيما في الفقه خير عون للشافعي على بلوغ ما يقصده من تحقيق مشروعه، والذي جناه الشافعي من تركيزه المبكر على مشروعه ما يأتي:

١. إخلاص الفكرة لعلم الفقه أورثه نظرًا دقيقًا به.

٢. الحذق بالمدارس والاتجاهات الدائرة حول علم الفقه.

٣. التمكن من التجديد فيه.

لكل عبقرية نشأة فريدة ونبوغ مبكر، وهذا النبوغ من أخص دعائم العبقرية لأنه يتيح للعالم تحقيق عدة فوائد كالقدرة على إنضاج المعرفة في زمن كافٍ، ومعاودة النظر في المشكلات التي تَعرِض له، وصولاً إلى المعرفة المنشودة، وكل ذلك تحقق في الشافعي مبكرًا

التركيز على المشروع:

تركيز الشافعي على مشروعه الفقهي جعله متميزًا عن بقيّة الأئمة ممن فرّق همّه على عدة علوم، لذا لم يكن لهم من الإسهام في الفقه ما كان للشافعي، وإذا نظرنا لنتاج الشافعي من أوله إلى آخره نجده قد استنفر أدواته وقواه العقلية في تثبيت فقهه، ومن دلائل إقبال الشافعي على الفقه ما يأتي:

١. **كان همته الفقه:** فمع نبوغه بالشعر وأيام الناس والأنساب كان يجمع همّه على الفقه، مع ابتعاده عن الانشغال بعلم الكلام، لذلك غدا طرازًا رفيعًا لم يزاحمه فيه مُزاحم، قال أحمد

واصفًا الشافعي: «خير خصلة كانت فيه: لم يكن يشتهي الكلام، وإنّما همّته الفقه».

٢. **التركيز على آيات وأحاديث الأحكام:** وهذا التركيز مكّن الشافعي من مقاليد أحكام الفقه ولذلك ترى للنص القرآني والسنة النبوية حضورًا بارزًا في تقريراته ومناظراته الفقهية، وبيان ذلك كما يأتي:

أما القرآن: فقد كان للشافعي عنايةٌ باستنباط معاني القرآن المتصلة بأحكام الفقه وهذا الإقبال كان حالةً دائمةً له، قال الربيع بن سليمان: «قلّما كنت أدخل على الشافعي إلا والمصحف بين يديه يتتبّع أحكام القرآن».

وأما الحديث: فلم يكن يتوسع فيه توسُّع المحدِّثين بل كان يتَّجه إلى ما يُعينه على بناء فقهه لاسيما أحاديث الأحكام حتى كاد يحيط بها، قال يحيى بن منصور: «سمعت إمام الأئمة ابن خزيمة يقول وقد سألته: هل تعرف سنة لرسول الله ﷺ في الحلال والحرام لم يودعها الشافعي كتبه؟ قال: لا» وإذا نظرت إلى مسند الشافعي المخرج من كتبه علمت عظيم اختصاص الشافعي بهذا النوع من الأحاديث.

٣. **التضلُّع من علم العربية وشعر العرب وأخذه من العلوم الأخرى بقدر ما يخدم علم الفقه:** فقد أقام الشافعي عشرين سنة على تعلم العربية وأيام الناس، وعلّل ذلك بقوله: «ما أردت بهذا إلا الاستعانة للفقه».

> **كان الشافعي ممن استهواه التأليف مبكرًا، وكان له طقس خاص في التأليف؛ فقد كان يديم النظر ليلاً حتى إذا تكاملت عنده الفكرة كتبها، ولا يتأخر في كتابتها متى سنحت له، ولا يؤجل ذلك خشية أن تفوته**

صحائف العبقرية:

التأليف أداة لترسيخ العلم ومراجعته ونضوجه، وقد كان الشافعي ممن استهواه التأليف مبكرًا، وكان له طقس خاص في التأليف فقد كان يديم النظر ليلاً حتى إذا تكاملت عنده الفكرة كتبها وكان لا يتأخر في كتابة الفكرة متى سنحت له ولا يؤجل ذلك خشية أن تفوته.

وتجلّى حصاد هذا التأليف في الكتب التي صنفها الشافعي بمصر فقد أملى ألفًا وخمسمائة ورقة وخَرَّجَ «كتاب الأمّ» ألفي ورقة، وكتاب «السنن»، وأشياء كثيرة، كلّها في أربع سنين.

ويفسر ابن راهويه هذا الكم الهائل من التأليف فيقول: «إنّ الله عجّل له عقله لقلة عمره».

ولم يكتف بالتأليف فحسب بل حرص عند تحريره لباب من العلم على إبلاغ طلابه، فقد حكى تلميذه بحر بن نصر الخولاني قال: «وكان يضع الكتب بين يديه، ويصنف الكتب، فإذا ارتفع له كتاب جاءه صديق له يقال له: ابن هَرِم، فيكتب ويقرأ عليه البويطي، وجميع من يحضر يسمع، في كتاب ابن هرم، ثم ينسخونه بعد».

وهذه القيمة العلمية لكتب الشافعي جعلت العلماء في عصره يحرصون على اقتناء كتب الشافعي ولا سيما الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه.

مبتكرات الشافعي وتأثيره على محيطه العلمي:

من النواحي التي أثبتت للشافعي وصف العبقرية: تلك المبتكرات التي جاء بها وهذا التأثير النوعي في محيطه العلمي، فلم يكن الشافعي متصفًا بالجمود على ما تلقاه بل جاء بأشياء لم يسبق إليها، ومن ذلك ما يأتي:

أولاً: مبتكرات الشافعي.

سجل الشافعي مبتكرات في جملة من الأبواب والمعارف فمنها:

- عدد من الأبواب الفقهية مثل (كتاب الجزية والسبق والرمي والقسامة وقتال أهل البغي)[1].
- تشجير النسب: فقد أرسل لهارون الرشيد النسب على شكل شجرة في رقعة.

> **الشافعي أول من جرّد الكلام في أصول الفقه، فمهّد الأدلة ورتّبها وبيّنها وصنّف فيها رسالته، وكان الفقهاء يستدلُّون ويعترضون ولم يكن لهم قانون يرجعون إليه حتى استنبط الشافعي أصول الفقه ووضع لهم قانونًا في مراتب الأدلة**

(١) مناقب الشافعي، للبيهقي (٢٦١/١).

» نهج الاحتجاج لخبر الواحد. كما هو مبثوث في الرسالة واختلاف الحديث وجماع العلم.

» علم الناسخ والمنسوخ.

ثانيا: تأثير الشافعي على محيطه العلمي.

نظرًا لعبقرية الشافعي وتعدُّد مواهبه فقد تعدَّدت جوانب تأثيره، ومن ذلك ما يأتي:

١. تأثيره فيمن صنّف في أصول الفقه:

فهو أول من جرّد الكلام في أصول الفقه، وامتازت كتاباته بالابتكار؛ فقد مهَّد الأدلة ورتَّبها وبيَّنها وصنَّف فيها رسالته، وكان الفقهاء يستدلُّون ويعترضون ولم يكن لهم قانون يرجعون إليه حتى استنبط الشافعي أصول الفقه ووضع لهم قانونًا في مراتب الأدلة.

٢. تأثيره فيمن صنف في أصول الحديث:

كثير مما كتبه الشافعي في أصول الحديث كان عمدةً لمن جاء بعده لا سيما في قضية حجية السنة وخبر الآحاد، كما هو واضح في كتابه الرسالة.

٣. تأثيره في الأعلام ومصنفاتهم:

لندرك حجم تأثير الشافعي بمن حوله نلاحظ أنّ الذين تأثّروا به من سادات العلماء فمنهم:

* **أحمد بن حنبل:** يمكننا أن نعتبر منهج الإمام أحمد تطورًا وامتدادًا لمنهج الشافعي مع قدرٍ من التفاوت النسبي في التعامل مع الأدلّة ضيقًا واتساعًا، قال أبو داوود صاحب السنن: «ما رأيت أحمد بن حنبل يميل إلى أحدٍ ميله إلى الشافعي»[(١)].

وهذا الميل ليس سببه حبُّ أحمد للشافعي فقط، بل له مسوغاته الشرعية والعلمية، قال ابن تيمية: «وأحمد كان معتدلاً عالمًا بالأمور يعطي كل ذي حق حقه؛ ولهذا كان يحب الشافعي ويثني عليه ويدعو له ويذب عنه عند من يطعن في الشافعي أو من ينسبه إلى بدعة، ويذكر تعظيمه للسنة واتباعه لها ومعرفته بأصول الفقه».

* **أبو عبيد القاسم بن سلام:** ظهر تأثره بكتب الشافعي من خلال ما يأتي:

١. صنّف في الفقه والخلاف واستعمل في كثيرٍ منها ألفاظ الشافعي وحججه.

٢. في أصول الفقه: تأثر بالشافعي ولاسيما في مسألة منزلة السنة من القرآن.

* **إسحاق بن راهويه:** فقد وضع جامعه الكبير على كتاب الشافعي.

* **محمد بن نصر المروزي:** ظهر تأثير الشافعي عليه من خلال كتابين له هما:

الأول: كتاب السنة فهو شعبة من كتاب الرسالة.
والثاني: كتاب فيما خالف فيه أبو حنفية عليًّا وابن مسعود، وهو على غرار كتاب الشافعي الذي يبيّن اختلاف علي وعبد الله بن مسعود.

* **ابن جرير الطبري:** فقد كان أول أمره شافعيًا ثم استقلّ. وظهر تأثّره بالشافعي من خلال:

١. كتاب (الاختلاف) وكتاب (اللطيف) للطبري موضوعهما ذات الموضوعات التي ذكرها الشافعي في رسالته.

٢. تشابه الإمامين في نمط التأليف والكتابة.

* **ابن حزم الظاهري:** فقد كان يلهج بالثناء على الشافعي، وممن نبّه على تأثر ابن حزم بالشافعي الشيخ محمد أبو زهرة إذ يقول: «يكاد يجزم القارئ أنّ ابن حزم استملى تفكيره عن الشافعي»، ولعل من بواعث هذا التأثّر ما للشافعي من نزعة ظاهرية في فقهه ومنهاجه.

مشكاة العبقرية (الكتاب والسنة):

لا شك أنّ الكتاب والسنة هما أصل العلوم ونبعها؛ لذا كان الاستهداء بهما وإدمان النظر فيهما من دعائم العبقرية ولنرى ما كان حظ الشافعي منهما؟

أولاً: الكتاب:

كان إقبال الشافعي على القرآن إقبالاً تامًّا مما أثّر في تفكيره ومنهجه ومكّنه من الابتكار في العلوم، ومن دلائل ذلك: قول الشافعي في مقدمة الرسالة: «فليست تنزل بأحدٍ من أهل دين الله نازلةٌ إلا وفي كتاب الله الدليلُ على سبيل الهدى فيها». وقال أحمد: «ما رأيت أحدًا أفقه في كتاب الله من هذا الفتى القرشي».

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢٥٣/٨).

يتتبع أحكام القرآن:

قال الربيع: «قلما كنت أدخل على الشافعي إلا والمصحف بين يديه وهو يتتبّع أحكام القرآن».

وهذا التركيز العلمي هو الذي مكن الشافعي من مقاليد الفقه، وتراه ظاهرًا في حجاجه مع غيره عند استعماله للنص القرآني. وقد جمع البيهقي أحكام القرآن من كلام الشافعي.

ثانيًا: السنة.

إن اهتمام الشافعي بالقرآن لم يشغله عن الاهتمام بالسنة والدفاع عنها فقد أوجد نظامًا معرفيًا لحماية موقع السنة من المنظومة التشريعية، من حيث الاحتجاج بها أصلاً ورتبتها في الاستدلال، ومن أخصّ كتبه في ذلك كتاب جماع العلم، وقد أطلق المحدثون عليه لقب ناصر الحديث، قال الشافعي: «سُمّيت ببغداد ناصر الحديث».

ولا غرابة في إطلاق هذا اللقب على الشافعي رحمه الله فقد ثبّت حجية السنّة ورسم منهج النظر والاستدلال في الحديث فاعترف بفضله أكابر المحدّثين كأحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة.

> **قال الإمام أحمد للفضل البزاز عن الإمام الشافعي: «وإن فاتك عقل هذا الفتى أخاف ألّا تجده إلى يوم القيامة»**

عقل العبقرية ودعائمها:

قال ابن تيمية: «والعلم له مبدأ، وهو: قوة العقل الذي هو الفهم والحفظ، وتمام، وهو: قوة المنطق، الذي هو البيان والعبارة»، وقد نال الشافعي من هاتين القوتين الحظ الأوفى، وقد دلّ على ذلك معيار الفوت الذي عناه الإمام أحمد بقوله للفضل البزاز: «وإن فاتك عقل هذا الفتى أخاف ألّا تجده إلى يوم القيامة».

ولهذه القوة العقلية للشافعي تمثلات هي:

١. القدرة العالية على الاستنباط.

٢. التتبع الحثيث لدقائق المعاني والعلوم.

٣. استخراج الكليات وإنشاء نظام الاستدلال ورسم منهج النظر الفقهي.

دعائم العقل:

إضافة لتوفيق الله فممّا دعم القوة العقلية الفذة لدى الشافعي جملة من المواهب: كالاستعداد الفطري، والقوة البيانية، والاحتكاك بالمدارس والمناظرة، وقوة الفراسة.

بيان العبقرية وحجاجها:

قد تتفاوت عند الفقيه الواحد القوة العقلية والبيانية، والسعيد من أوتي حظًّا من القوتين معًا ومنهم الشافعي، أما عن قوته العقلية فقد أسلفنا الكلام عنها، ونبيّن هنا ما امتاز به من القوة البيانية فنقول:

إنّ من أجلّ ما امتاز به الشافعي علمه بالعربية، ويظهر هذا من خلال ما يأتي:

١. **حثه على تعلم العربية:** قال الشافعي: «تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة».

٢. **تعدّ كتب الشافعي في الذروة العليا من البيان:** شهد له بذلك أكابر العلماء قديمًا وحديثًا ومنهم الجرجاني والجويني وابن تيمية، قال الجاحظ: «تتبعت كلام النَّبَغة في العلم فلم أرَ أحسن تأليفًا وفصاحة من الشافعي، كأن فاه ينظم درًا إلى در».

قال الشيخ أحمد شاكر: «كتاب الرسالة بل كتب الشافعي أجمع: كتب أدب ولغة وثقافة».

ومما يستملح هنا أنّ الشيخ علي الطنطاوي كان يقرأ فصولاً من كتاب الأم للشافعي لا لمعرفة الحكم بل للاستمتاع بذلك البيان.

> **للشافعي اختصاصٌ بالجدل والحجاج لا سيما في عصره الذي اشتدّت فيه المناظرات، وتلك المناظرات هي التي صقلت موهبته حتى استخلص منها الأصول والقواعد والكليّات، ومن براعة الشافعي أنه يجمع في مناظراته بين لطف الأدب وحسن العشرة واستيفاء الحق**

٣. **القدرة على نقض الخصوم بالبيان:** فهو يعمل ببيانه ما لا يعمل المقاتل بسيفه، قال أبو ثور لأصحابه: «إن نقض أحد أمرنا فهذا ينقضه بلسانه وكلامه».

حجاج العبقرية:

للشافعي اختصاصٌ بالجدل والحجاج لا سيما في عصره الذي اشتدّت فيه المناظرات، وتلك المناظرات هي التي صقلت موهبة الشافعي حتى استخلص منها الأصول والقواعد والكليّات، ومن براعة الشافعي أنه يجمع في مناظراته بين لطف الأدب وحسن العشرة واستيفاء الحق.

قال ابن عبد الحكم: «ما علّم الناسَ الحجاجَ إلّا الشافعي... ما رأيت أحدًا ناظر الشافعي إلا رحمته مع الشافعي».

يقول الدكتور الناجي لَمِين: «الشافعي أول فقيه مجتهد حرص على أن يذيل كل فرع بأصله، وعلى أن ينشر مشروعه الأصولي في الناس ويناظر عليه ويستمع لمخالفيه، ويعيد النظر في اجتهاده بعد سماعه ومطالعته كتب الفقهاء الآخرين»[1].

ومما يدل على هذا الاقتدار العالي على المناظرة والمكنة العلمية القصة الآتية:

قال الربيع: «قال لي الشافعي يومًا: كيف تركتَ أهل مصر؟ فقلت: تركتهم على ضربين: فرقة منهم قد مالت إلى قول «مالك» وأخذت به، واعتمدت عليه، وناضلت عنه، وفرقة مالت إلى قول «أبي حنيفة» فأخذت به، وناضلت عنه. فقال: أرجو أن أقدم مصر، إن شاء الله، وآتيهم بشيء أشغلهم به عن القولين جميعًا. قال الربيع: ففعل ذلك -والله- حين دخل مصر».

عطاءات الحِجاج:

اكتسب الشافعي نتيجة مناظراته مواهب فريدة منها ما يأتي:

أ. ملكة التمييز بين الصحيح والسقيم من الحجج وما يصلح منها وما يردّ.

ب. العناية الفائقة بطرد حجته واستقراراها وثباتها ودفع ما يكدر عليها.

ج. السبق والإقدام: فكتابه الأم حوى مثلاً مئة وخمسين مناظرة، فكتب الشافعي هي كتب حجج ومناظرات.

القسم الثاني - اتصال العبقرية وانفصالها:

ويقصد به ما كان للشافعي من اتصال وتأثر بالمدارس الفقهية حوله وهي: المدرسة المكية والمدرسة المدنية والمدرسة العراقية، والمدرسة اليمنية بنسبة أقل؛ لقلة إقامته بها واشتغاله بالقضاء.

* **خلاصة الاتصال:** أنّ الشافعي استفاد من تعدد المدارس التوجهَ إلى الكليات والقواعد وأصول الاستنباط، فقد كان اعتناؤه بها أكثر من التفاصيل، وهو بما وضعه من كتب جعل كتبه معينًا غنيًا من جهتين:
  - الأولى: جهة الوقوف على فقهه والنظر في أدلته.
  - الثانية: جهة البصر بأصول الأئمة الذين ردّ عليهم من حيث أصولهم وفروعهم، فكتب الشافعي تعدّ وثيقة تاريخية إضافة لكونها وثيقة علمية دالّةً على كمال علمه.
* **انفصال العبقرية:** ونعني بها انفصال منهج الشافعي تحديدًا عن المدرسة العراقية والمدنية، أما المدرسة المكية فكانت فيها انطلاقة الشافعي العلمية، وأما اليمنية فلم تطل إقامة الشافعي فيها كثيرًا.

أولا: انفصال العبقرية عن المدرسة العراقية:

سبب الانفصال:

ما السبب الذي حدا بالشافعي للانفصال عن المدرسة العراقية؟

الجواب أنّه كان أوسع منهم وأجود مادة في الحديث، إضافة إلى أنّه أوجد نظامًا استدلاليًا وأظهره في كتاباته ومناظراته.

(هات) كلمةٌ كان بها انفصال الشافعي عن المدرسة العراقية وقصتها «أنّ محمد بن الحسن قال للشافعي ذات يوم في الغضب: بلغني أنك تخالفنا، فناظرني، فقلت: إني أُجلّك وأرفعك عن المناظرة، فقال: لابدّ من ذلك، فلما أبى قلت: هات».

يصف ابن كثير هذه المناظرات بقوله: «كانا يتناظران فيما بينهما كما جرت عادة الفقهاء، هذا على مذهب أهل الحجاز، وهذا على مذهب أهل العراق، وكلاهما بحرٌ لا تُكدِّره الدِّلاء».

(١) علاقة الإنتاج الفقهي بعلم أصول الفقه المدون، ص (١٠).

وخلاصة هذا الانفصال أن الشافعي طعن في جهتين مهمتين في الفقه العراقي هما:

- **الأولى:** قلة خبرتهم بالسنة مقارنة مع أهل الحديث، ولذا كان يقعون بالاستدلال بالحديث الواهي.
- **الثانية:** إسرافهم في الرأي، وربما احتجُّوا بأشياء فيقلبها حجّةً عليهم.

دستور النقض:

كان نقض الشافعي على المدرسة العراقية يقوم على دعامتين:

- **الدعامة الأولى (المناظرات):** ففي كتاب الأم وحده ما يزيد عن مئة وخمسين مناظرة.
- **الدعامة الثانية: (المؤلفات).**

فقد وضع الشافعي مؤلفات في الرد على المدرسة العراقية ومنها: كتاب على سير الأوزاعي، والرد على محمد بن الحسن، واختلاف العراقِيَّيْنِ (ابن أبي ليلى وأبي حنيفة)، واختلاف عليٍّ وابن مسعود ﷺ، وإبطال الاستحسان.

حصاد الانفصال:

لقد تم للشافعي نقض أصول أهل الرأي سريعًا وقد دلّ على ذلك أمران:

- **الأمر الأول:** انفضاض كثير من حلقات أصحاب الرأي سريعًا، يقول إبراهيم الحربي: «قدم الشافعي بغداد، وفي المسجد الجامع الغربي عشرون حلقة لأصحاب الرأي، فلما كان في الجمعة الثانية لم يثبت منها إلا ثلاث حلق أو أربع حلق».
- **الأمر الثاني:** ارتحال عدد من العلماء من المدرسة العراقية إلى منهج الشافعي نتيجة مناظرات الشافعي مع أصحاب أبي حنيفة، ومن أهمهم: أبو ثور وحسين الكرابيسي والزعفراني والمزني رحمهم الله تعالى.

ثانيا: انفصال العبقرية عن المدرسة المدنية:

عندما اتسعت معارف الشافعي ومداركه أدرك ما عند أهل المدينة ولاسيما مالك من نوع اضطراب، ولعلّ مناظرات الشافعي مع محمد بن الحسن كانت بداية لنقضه فيما بعد على المدرسة المدنية لا سيما أنه ربما وقف على ضعفٍ في بعض أصولهم.

سبب انفصال العبقرية:

لمّا وجد الشافعي أصحاب مالك يتعصبون له ويعظمونه تعظيمًا مبالغًا فيه خرجوا فيه إلى الغلو[1] ردّ على أستاذه مالك؛ للتخفيف من هذا الغلو، ولبيان أنّ مالكًا بشرٌ يخطئ ويصيب[2].

دستور النقض:

كان مبدأ نقض الشافعي على المالكية عندما وضع كتابه (اختلاف مالك والشافعي) حيث بدأ بنقض أصولهم وفروعهم ولم يكن قبل ذلك ينقض إلا العراقيين. وكان أظهر ما امتاز به الشافعي في زعزعة أصول المدنيين قضية عمل أهل المدينة واعتباره إجماعًا.

وقد أنكر الشافعي على أهل المدينة ما يأتي:

١. **مسائل متعلقة بالإجماع:** كالتساهل في ادعاء الإجماع في مسائل لا يعلم فيها أقوال لموافق أو مخالف، أو تسمية عمل أهل المدينة وحدهم إجماعًا، أو استدلالهم بإجماع وهو منقوض أو فيه مخالفة من أهل المدينة أنفسهم.

٢. **سيولة استعمالهم لمصطلح عمل أهل المدينة** مع جهده في وضع ضابط له فلم يستطع.

حصاد الانفصال:

ويتمثّل في تلك الارتحالات المالكية إلى منهج الشافعي فمنهم: البويطي، والربيع بن سليمان، ومحمد بن عبد الحكم: كان مالكيًا ثم شافعيًا وبعد وفاة الشافعي رجع مالكيًا.

> **انفصل الشافعي عن المدرستين السائدتين في عصره، وألّف في الردِّ عليهما، فكان له نمط متميز ومدرسة متميزة فريدة بذاتها وهو في طوره الأخير**

(١) وضع الشافعي كتابه على مالك بن أنس؛ لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستسقى بها! وأنه كان يقال للأندلسيين: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون: قال مالك! ينظر: البيهقي، مناقب الشافعي (٥٠٨/١).

(٢) هل فاتنا عقل الشافعي، لفايز الصلاح، مقال في مجلة رواء، العدد الثامن.

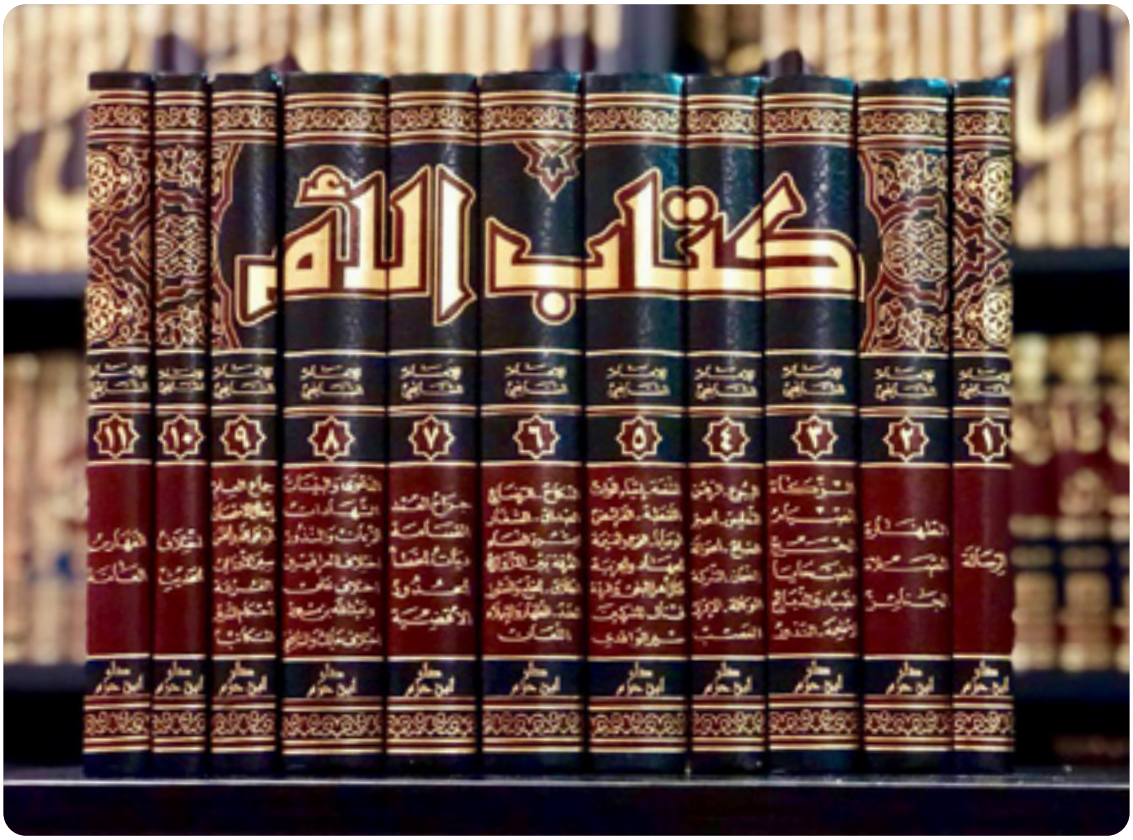

مدرسة فريدة ومنهج متميز:

إذا كان الشافعي قد انفصل عن المدرستين السائدتين في عصره، وألّف في الردِّ عليهما، فما المدرسة التي كان يتبعها بعد هذا الانفصال؟

يجيب الدكتور أيمن صالح بجواب دقيق محكم فيقول: «الشافعي له نمط متميز يجعلنا نعزله عن أهل الحديث ونجعله مدرسة متميزة فريدة بذاتها وهو في طوره الأخير، متميزًا عن الجميع في الأصول والفروع، ممتازًا بثلاث خصائص رئيسة جعلته مختلفًا عن الاتجاهات الفقهية السائدة في زمنه (أهل الرأي وأهل المدينة وأهل الحديث بالمعنى الضيق)، وهي:

١. تعظيمه أخبار الآحاد، وهذا وافق فيه أهل الحديث وأهل الرأي وأهل المدينة.

٢. قصره الاجتهاد على قياس غير المنصوص على المنصوص وإبطاله جميع ضروب الاجتهاد كالاستحسان وسد الذرائع. وهذا خالف فيه أهل الرأي وأهل المدينة بطريقة مباشرة، وأهل الحديث بطريقة غير مباشرة؛ لأنهم كانوا يعتمدون أقضية السلف وفتاويهم التي تقوم على الاستحسان وسد الذرائع.

٣. قلة اعتماده واعتباره لآثار الصحابة والتابعين، وهذا خالف فيه جميع الاتجاهات وبدرجة أساس فقه المحدثين، والذي يظهر لي في فقه الشافعي أنه نَزَّاع إلى الظاهر مقتصد متردد في التعليل، جمع بين النزعة الظاهرية عند المحدثين وبين النزعة الظاهرية عند أهل الرأي لذا كان هذا الفقه مقدمة لظهور الفقه الظاهري».

والمؤلف وصل إلى خلاصة مفادها:

أنَّ الشافعي قد تميَّز بأمورٍ لم تكن عند غيره، ومنها ما يأتي:

١. تضلعه من مختلف المدارس الفقهية في عصره.

٢. التركيز الدقيق على مشروعه العلمي وهو الفقه، وأخذه من العلوم بقدر ما يمكنه من ذلك.

٣. العناية بالتصنيف والقدرة على المناظرة لتثبيت حجته واطرادها.

ولئن فاتنا عصر الشافعي وعبقريته فقد رسم لنا منهاجًا لكي نحاذي عبقريته، فهل من مشمّر؟!

أربع سنوات في «غربة»

أ. محمود طعمة

تدور السنوات كعجلةٍ حافلةٍ في منحدر لا يمكن أن يكبحها أحد، كذلك الأحداث أيضًا. ففي الغربة لم يعد عدُّ السنين صعبًا؛ فهنا السنوات تتزاحم سريعًا، لا أعرف إن كانت سرعة السنوات في الوطن على نفس الوتيرة أيضًا.

في الحقيقة لم أتخلَّ عن تتبع نفسي في المرآة وتحسس شعر رأسي مع انتشار الشيب فيه، ولم أصمت عن ترديد كلمة ماما وبابا ولو قلتها تمتمة، ولم أغض النظر عن مشاهدة صور العائلة مع التكبير لرؤية وجوه أحبتي، ولم أتوقف عن إيماني برب العالمين متيقنًا أنه لن يتركنا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، ولم أبرح عن الشوق لمن سكن الديار في موطني الأصلي.

اسعَ لأن تتعلَّم من كلِّ ما يحيط بك ولو كان حائطًا، فتعلم منه كيف ظل قائمًا إلى الآن. تعلم من أشعة الشمس كيف تعطيك الدفء ومن الظل كيف يحميك. تعلم من تصفُّحك للهاتف، لا تدع وقتك يذهب سدى، خذ فسحة وتعلم ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. تعلم من وقوفك أمام المرآة وسل نفسك: ماذا تعلمت؟

تذكَّر أن الله خلقك لا لتكون كغيرك، أضف للحياة بهاراتك الخاصة، واصبر على كل ما يصيبك، فإن الله مع الصابرين.

التفاؤل من أسباب السعادة

أ. أسامة الزقزوق

من أهم أسباب السعادة: التفاؤل الذي يدفع لشخص للإقبال على الحياة بهمة ونشاط، والنظر لأحداثها والتعامل معها بإيجابية.

فقد تجد إنسانًا فقيرًا لا يجد قوت يومه، لكنه تجده متصالحًا مع نفسه ومع غيره، والابتسامة لا تفارق شفتيه، وهذا غالبًا ما يكون ناتجًا عن الرضا بالقضاء والقدر، وبما قسمه الله في هذه الحياة. وعلى النقيض ترى إنسانًا ثريًا حباه الله بالكثير من النعم، لكنه مكتئب وحزين، في حين نرى العبوس والوجوم على وجهه؛ لأنه يفتقد أهم موجبات السعادة، وهي نعمة الرضا، مع أنه لو تدبَّر حديث النبي ﷺ: (من بات آمنًا في سربه معافًى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها).

وفي الأثر أن رجلًا سأل أحد الصالحين ليدعو الله أن يغنيه، وكان هذا الرجل مستجاب الدعوة، فسأله هذا الرجل الصالح: ألك بيت تسكن فيه؟ نعم، قال: ألك زوجة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال العبد الصالح: إذن أنت من الأغنياء، فزاد الرجل وقال: بل لي خادم يخدمني، قال: إذن أنت من الملوك.

صناعة القيم مهمّة مجتمعية

أ. أنس جمعة حشيشو

كلّ منّا يبني حياته ويرتبها وفق منظومته القيمية الخاصّة بشكلٍ أو بآخر شعر أم لم يشعر. والتحدي الحقيقي فيما يخصُّ هذه المنظومة العمل على بنائها بطريقة منهجية وسليمة، تعين الفرد والمجتمع على الوصول لمبتغاه، وتجعل طريقه واضحًا وأهدافه جليّة المعالم.

وتستوقفنا مغالطات من البعض تكمن في الآتي:

١. من يجعل التغنّي بالقيم كافيًا، ويسقط الواجب عن صاحبه ويعفيه من تحويلها لسلوك إجرائي أو تمثّل لها.
٢. ومن يتعذر دائمًا بأنّ هذا المجال مسؤولية المصلحين فقط من خطباء ومعلمين.

وهنا لا بدّ من نقطة فارقة تجعلنا مضطرين لضبط البوصلة وتبيان الخلل في الفهم والتطبيق، فبناء القيم في سلوك حقيقي في المجتمع هو مسؤولية الجميع في المجالات التي يعملون بها كافةً، ولا يمكن أن تخلو مهنة أو تخصص إلّا وله منظومته القيمية الخاصة به. مع اختلاف الأولويات بين مجال وآخر وظهور لبعض القيم جليّةً واضحةً أكثر من غيرها تبعًا للأهمية وجوهر العمل، فرأس مال التّاجر هو الصدق والأمانة، والقضاء ميزانه العدل. وهذا يؤكد أن حاجتنا للقيم كحاجتنا لدليل يرشدنا إلى الطريق، ويحدد لنا آليات الحكم الأمثل.

المدرسة و«المعرفة المرحة»

د.هيبة مسعودي

كتب ميشال دي مونتين في كتاب المحاولات: «تعليم طفل ليس من قبيل ملء إناء بل إضرام نار» وهو قول نستجلي منه الكثير حول المغزى من العملية التربوية التي يجب أن تدرأ التلقين ورصّ المعلومات غير المترابطة فيما بينها وبين الواقع؛ ممّا يجعل عملية ترسيخها تميل إلى العسر، إذا لم نقل الاستحالة في أغلب الأحيان، كما يجب أن ننتصر للتربية كإضرام للهيب المعرفة وحبّ الاطلاع لدى الناشئة بأن نجعل المعرفة ممتعة ومسليّة لا تثير القلق والضجر، وهو ما رددناه في شعارات من قبيل «علّم الأطفال وهم يلعبون».

هذه الشعارات الفلسفية تمنح المعلّم مهمّة أكثر عسرًا ممّا كنّا نعتقده. فكيف له أنْ يضرم نار المعرفة لمجموعة من الأطفال على تباين ميولاتهم وأوساطهم الاجتماعية في ذات الآن؟ أيّ إضرام هذا الذي لا يتطلب أكسجينًا للتأجيج؟ بل اقتدارات التّمكن من قراءة ميولات الأطفال، وتفكيكًا لشفرتهم النفسية وتنشيط للممارسات البيداغوجية مسايرة للتحولات المجتمعية؟

هي ضرب من الأسئلة التي لا ندعي أنّنا أول من طرحها، بل مثّلت هواجس فلسفية يدلي فيها كل فيلسوف بدلو نظريته، والميدان التعليمي هو محك التطبيق والنجاح.

جاءَهُ الأعمى

د.خير الله طالب

بينما كان نبي الله ﷺ جالسًا مع أحد وجهاء مكة يقرأ عليه القرآن رجاء إسلامه، يأتي صحابيٌّ أعمى يطلب العلم راغبًا، فيُعرض عنه النبي ﷺ وهو عابس؛ اشتغالاً بذلك الشخص، فتنزل سورة[1] تعاتبه في إعراضه عمن جاء ساعيًا يخشى الله، واشتغاله عنه بوجيهٍ معرضٍ مستغنٍ عن الاهتداء، مع أنه ﷺ غير مؤاخَذ على إعراضه.

سورة (عبس) تبيّن حقيقة دعوة القرآن، وكرامة من ينتفع بها، وحقارة من يُعرض عنها، وتؤكد في آخرها على المسؤولية الفردية عن قبول الحق، وترسم منهجًا حاسمًا في تعميم الدعوة للجميع على السواء، ثم الإقبال على من استجاب وقبل لأجل تزكيته وتعليمه، دون تعليق النفس بالمعرضين. إنها تذكرة الله لمن استعد لها، وأول الاستعداد: قيادة العقل للنفس وضبطه لطباعها ومشتهياتها وأعراضها. أما المرشد من البشر فإنما هو مبلّغ يتلو القرآن، ويزكي من يستجيب دون غيره، ثم يوظّف من تزكى لخدمة الدين ولو كان أعمى! فأولئك هم النخبة الحقيقية.

هذا المشهد قد يتجلى في صورة شاب جادّ باحث عمن يعلمه، وعامل صادق يفتش عمن يستفتيه، وطاقة تبحث عمن يوظفها، ومصلٍّ في جامع متعطش لمن يجالسه .. أين أولئك ممن انتسب لجامعة لا يريد إلا شهادتها، أو صار عضوًا في نقابة أو رابطة دون هدف، أو حصل على فرصة تعليمية دون إقباله الجادّ عليها.

مسؤولية قادة التربية والتعليم اصطفاء ذوي البصيرة ولو كان مظهرهم لا يوحي بذلك، فهُم أساس البناء وبيئة الاستثمار المربح. وعلى المربي والداعية أن يميز بين المقبل والمعرض، والراغب والزاهد، والمتحفّز والمتثاقل، والقادر والقاصر، والصاعد والوصولي، والهميم والدنيء.. وقد صار للاختيار والترشيح أدوات ومقاييس لا يجوز التفريط بإقامة المدارس والمعاهد والجامعات والبرامج دون استخدامها في اعتماد القبول.

ينبغي أن يتسنم تعليمُ العلوم الشرعية أعلى درجات العناية الواجبة باختيار المتعلمين القادرين على تحمل أمانة الدين[2]؛ فإنما ضعف الدعوة من ضعف حملتها. ولا تجديد دون تغيير حقيقي في اختيار مستودعات العلم والفكر والتربية.

حين يتمنى الفاروق ملء البيت رجالاً كأبي عبيدة يستعملهم في أعمال المسلمين، فهو إنما يشير إلى ندرة المعادن النفيسة، وخاصة في زمن تنمو فيه الأعمال ويضمر الرجال. والمفتاح بيد أولئك المرابطين على ثغور العلم والفكر والتربية، أن يحسنوا اختيار نقاط الرباط، في بيوت الله ومرابط التربية.. والانسحاب رويدًا من ميادين الاستهلاك من برامج استعراضية أو استهلاكية أو جدلية أو سطحية أو تعيش وهم النخبوية. إنما النخبة من استجاب وتزكى وعمل.

وإذا جاء العتاب للنبي العظيم ﷺ على التصدي لدعوة شخصٍ معرض على حساب الراغب، فما بالك بالمتصدي لتلك الصوارف! وإذا عوتب المصطفى ﷺ في رجل أعمى، فكيف بأجيال ناهضة تعاني التهميش التربوي وفقدان المربين والمفتين، الأمر الذي يقتضي ترك مألوفات والتزامات مترهلة ومطامع عاجلة؛ نهوضًا إلى أولويات منسية في اختيار البيئات والموضوعات والفئات القابلة لا الصادّة المستغنية المعتدّة بمؤهلاتها ومعلوماتها ومكتسباتها ومواقعها وعلاقاتها، مع الاكتفاء بتحفيزهم دون إلحاح، فإنما يقدّر قيمة الشيء الراغب فيه، أما البذل للمستغني فإرخاص للثمين. ولا يُترك معلوم النفع لموهوم.

فمن علمه الله شيئًا يقدر على بذله بأي صورة، فليرابط بقليل دائم مع المقبلين بقلبه وعقله. وحقّ المعلمين على المخططين إعداد برامج تعليم بنائي متين لذوي الاستعداد الأكيد.

(١) ذكر المفسرون أن سورة عبس نزلت في ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وكان رجلًا أعمى، وهو أحد المؤذنين، ينظر: سنن الترمذي: (٣٣٣١).

(٢) وفي كتاب (الفصل بين النفس والعقل) للشيخ عبد العزيز الطريفي ما يستحق المطالعة، ينظر مثلًا ص: (٤٨- ٦٣).

رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

مسابقة أقلام موهوبة

«خاصة بطلاب الجامعات في الداخل السوري»

كتابة مقالة في أحد الموضوعات الآتية

الشباب وضياع الهوية	التربية من خلال استثمار الأخطاء	تأثر المغلوب بثقافة الغالب
العلوم الإنسانية ودورها في التأسيس لنهضة الشعوب	الإلحاد المعاصر: جذوره وآثاره	العلمانية وامتداداتها في الفكر والواقع
بناء صلابة المسلم في مواجهة الفتن المعاصرة	تفاهم الأبوين وأثره في استقرار نفسيات الأبناء	البعد عن العربية وخطره على الأجيال في المهجر
معالم البلاغة النبوية	التراث ودوره في نهضة الأمم	حقوق المرأة والظاهرة النسوية
كيف يمكننا تذوق الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم؟	تعظيم اليقين بالله وأثره في التحصين من الانحراف	الشخصية المتوازنة

تستقبل المشاركات في الفترة ما بين: ١٥-١٠-٢٠٢٢ حتى ١٥-١١-٢٠٢٢م

الجوائز

الفائز الأول	الفائز الثاني	الفائز الثالث	بقية الفائزين العشرة
$200	$150	$100	$50

تنبيهات/

- لمعرفة شروط المسابقة نرجو زيارة صفحتنا على فيسبوك.
- من حق المجلة أن تنشر جميع المواد التي تصلها.
- على المتقدم للمسابقة أن يثبت انتسابه لإحدى الجامعات في المناطق المحررة.
- ترسل جميع المشاركات على البريد التالي: rawaa@islamicsham.org

www.rawaamagazine.com

rawaamagazine